بنية الوعي الذاتي في القرآن الكريم

The Foundational Differences in Legal Rulings Between the Majority of Scholars and the Hanafis and Their Impact on jurisprudential Branches

10.35781/1637-000-127-001

د. فهد عائض فهد القحطاني*

*أستاذ أصول التربية المشارك بكلية التربية جامعة أم القرى

ملخص الدراسة

هدفت الدراسة إلى تكوين نسق عام لمفهوم الوعي الذاتي من خلال القرآن الكريم، وذلك عبر بيان هذا المفهوم من القرآن الكريم، ومن ثم رصد الاستعدادات الأولية التي وهبها الله للإنسان لتمكنه من الوعي الذاتي، واستعراض المعوقات التي تحول دون بلوغ هذا الوعي، وصولاً إلى استنباط المحصلة المرجوة من الوعي الذاتي على الفرد المؤمن. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي عبر الطريقة الاستنباطية، لاستخلاص المفاهيم ذات العلاقة من القرآن الكريم.

وقد خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج أبرزها:

1. أظهر التحليل أن الوعي الذاتي في القرآن الكريم هو وظيفة فطرية متجذرة في التكوين الإنساني، تتجلى من خلال مفاهيم قرآنية محورية كالمحاسبة، التفكر، التزكية، النية، والبصيرة.
2. تميز الخطاب القرآني في تناول مفهوم الوعي الذاتي بعدد من المميزات تجاوز بها قصور علم النفس الحديث ومنها: الموضوعية، والشمولية، والثبات، ووضوح الغاية.
3. أوضح البحث أن القرآن يُمهّد للوعي الذاتي عبر منظومة من الاستعدادات الفطرية والمعرفية، مثل قابلية النفس للمحاسبة، والقدرة على التفكر والتدبر، وحضور الضمير الأخلاقي المربوط بالوحي، والميل الفطري نحو الخير والحق.
4. بيّن البحث أن أبرز معوّقات الوعي الذاتي في القرآن الكريم تنقسم إلى داخلية :كالغفلة، والهوى، والجهل، والكبر وخارجية :كوسوسة الشيطان، وضغط البيئة، والاتباع الأعمى للتقاليد.
5. تتجلى ثمار الوعي الذاتي على الفرد المؤمن بعدد من الانعكاسات ومن أبرزها: معرفة الله، والاقتراب من الفطرة، وإدراك مداخل الشيطان.

الكلمات المفتاحية:

الوعي - الوعي الذاتي - القرآن الكريم

ISSN : 2410-1818

The Structure of Self-Awareness in the Holy Qur'an

Dr. Fahd Aedh Fahd Al-Qahtani*

*Associate Professor of Foundations of Education, College of Education, Umm Al-Qura University

Abstract

This study aimed to establish a comprehensive framework for the concept of **self-awareness** based on the Qur'an. It sought to explore the Qur'anic understanding of self-awareness, identify the initial capacities granted by God to enable human self-awareness, examine the obstacles that hinder its development, and ultimately deduce the intended outcomes of self-awareness for the believing individual. "This study employed the descriptive-analytical approach through the deductive method, in order to extract the relevant concepts from the Holy Qur'an."

The study yielded several key findings, including the following:

1. The analysis revealed that self-awareness, as portrayed in the Qur'an, is an **innate function rooted in human nature**, manifested through key Qur'anic concepts such as self-accountability (*muhāsabah*), reflection (*tafakkur*), purification (*tazkiyah*), intention (*niyyah*), and inner insight (*baṣīrah*).
2. The Qur'anic discourse on self-awareness possesses distinct characteristics that address the shortcomings of modern psychology, including: **objectivity**, **comprehensiveness**, **consistency**, and a **clear moral purpose**.
3. The study demonstrated that the Qur'an paves the way for self-awareness through a set of **innate and cognitive predispositions**, such as the soul's ability to engage in self-accountability, the human capacity for reflection and contemplation, the presence of a moral conscience grounded in divine revelation, and a natural inclination toward truth and goodness.
4. The study identified two categories of major **obstacles to self-awareness** in the Qur'an: internal (such as heedlessness, desire, ignorance, and arrogance) and external (such as Satanic whisperings, social pressure, and blind adherence to tradition).
5. The outcomes of Qur'anic self-awareness for the believing individual are manifested in several profound ways, most notably: **knowing God**, **reconnecting with one's primordial nature (fiṭrah)**, and **recognizing the entry points of Satan**.

Keywords:
Awareness – Self-awareness – The Holy Qur'an

ISSN : 2410-1818

المقدمة

يعد البحث في المجال النفسي خصوصًا والمجال الإنساني عمومًا من الحقول البحثية ذات الطابع المعقد؛ وذلك لارتباطه بالبشر وما يعتريهم من تغير وتبدل، ولشدة التباين والنسبية بينهم، من أجل ذلك يلجأ الباحثون في هذه المجالات إلى مسلمات يمكن الاتكاء عليها لتكون المرجع والمحك في ظل المفاهيم النسبية، فبقدر صلابة الأسس النظرية والمسلمات التي يقف عليها الباحث؛ تكن قوة نتائجه واستخلاصاته، ومن هذه الزاوية تبرز إحدى قيم القرآن الكريم حين يعتمد عليه الباحث كإطار مرجعي موجه للبحث، فكتاب الله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونبي الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ويتناول البحث مفهومًا ذا علاقة بالنفس البشرية التي تشكل مادة رئيسة لعلم النفس والتربية، كما أن القرآن الكريم قد عني بها أيما عناية، وهنا يكمن الفرق في متانة المرجع بين نص بشري قائم على الفلسفة أو الفرضيات شبه التجريبية، وبين وحي منزل ممن خلق النفس وسواها وألهمها فجورها وتقواها، وبين سبل تزكيتها، وطرائق تدسيتها. كما أن من الفروق الهامة بين المرجعين: هو البعد الغائي من الوعي الذاتي، والدوافع الأولية المحفزة له، فنجد أن السمة العامة لأدبيات المدارس النفسية تناولت مفهوم الوعي الذاتي كوصف لمراحله التطورية المرتبطة بالعمر، وكمحاولة لتوظيفه في الكشف عن المهارات والسمات الشخصية المعينة للفرد على نجاحه المادي، وعلاقاته الاجتماعية، وبعضهم يقف على حدود معرفة ما بالنفس كغاية نهائية، كما ذكر كولمان في نظريته حول الوعي الذاتي الذي يرى أنه يقود الفرد إلى إدراكه للصلة بين مشاعره وأفكاره وما يدور حوله من أحداث خارجية، ومعرفته لإمكاناته وقدراته (Coleman,1995)، ونحو ذلك يوجز دانييل (٢٠٠٠) الوعي الذاتي بأنه: إدراك الفرد لحالته النفسية، وآلية تفكيره إزاءها، ويرى أن ذلك يقود الفرد لمعرفة سماته الشخصية، والتمتع بصحة نفسية جيدة.

في حين أن القرآن الكريم دعا إلى الوعي الذاتي مبينًا المحاذير النفسية، والعلل القلبية التي ينبغي الحذر منها، ومحفزًا للبشر بتبيان عواقبها وثوابها في الدنيا والآخرة، وسبل الوصول إلى هذه الحالة الفريدة من الرقابة الداخلية، وبيان الاستعدادات الأولية لدى البشر التي تمكنهم من ذلك، وانعكاسه على حياتهم وعلاقتهم بربهم وبمن حولهم، وبذلك تكتمل أركان حالة الوعي المنشودة، من غاية ووسيلة واستعداد.

ولئن كان مصطلح الوعي الذاتي لم يذكر نصًا في القرآن والسنة؛ إلا أنه ورد عبر مفاهيم أخرى تقود في محصلتها للوعي الذاتي، وبين السبل التي بها يحيد الفرد عن مراقبة ما بنفسه، وانعكاس ذلك على علاقته بربه، وعلاقته بالآخرين والتي تمثل المجال الأخلاقي الذي عُني به الشارع الحكيم عناية

ISSN : 2410-1818

تبلغ تحديد المصير الأخروي، فمفهوم رقابة النفس ومجاهدتها، واتباع الهوى، ومخادعة النفس، واتباع الظن، والأعمال القلبية، ومداخل الشيطان.. وغيرها، كلها من المفاهيم المرتبطة بالوعي الذاتي كما سيأتي بيانه. وبالتالي فإن القرآن الكريم جلى هذا المفهوم خاصة وغيره من المفاهيم النفسية عامة تجلية تتسم بالوضوح والإتساق والترابط المنطقي؛ بعيدًا عن العمومية التي تظهر في أدبيات المدارس النفسية، وهذا بدوره يجعل التطبيق العملي أكثر إمكانًا، ويسهم في تحقيق أهداف العلم التي تنطلق من الفهم والتفسير البين نحو التنبؤ والتحكم.

وهذا ما خلصت له دراسة أحمد (٢٠١٩) التي هدفت لدراسة مفهوم الطمأنينة بين القرآن الكريم والنظريات النفسية، وحاول الباحث في أحد أبعاد دراسته المقارنة بين الوصف التفصيلي بين التفسيرين النفسي والقرآني لمفهوم الطمأنينة؛ وكان من نتائجه: أن التفسيرات النفسية لمفهوم الطمأنينة جاءت مختصرة بطريقة مخلة، حيث لم تتجاوز في وصفها للطمأنينة تقديم معنى وفي أحيان قليلة العوامل المحققة للطمأنينة، أما تفسيرات القرآن الكريم فقد جاءت شاملة متكاملة تتسم بوضوح المفاهيم، والتماسك فيما بينها بصورة تمكن من استشفاف العلاقات البنائية والوظيفية، حيث احتوت جميع تفسيرات الآيات على معنى ومكان الطمأنينة، والحالة قبل حدوث الطمأنينة، والعوامل المحققة لها.

موضوع الدراسة

المتتبع لمفهوم الوعي الذاتي في النظريات النفسية يجد أن المفهوم مشوب بنوع من الضبابية إزاء محدداته، ومضامينه، فضلا عن غايته، فلا تكاد تجد نظرية من النظريات بينت جوابًا لسؤال: الوعي بماذا تحديدًا؟ وإنما ذكرت مجالات عامة ينبغي الوعي بها كالسمات الشخصية، وطبيعة المشاعر، والتفكير إزاء هذه المشاعر، وأسهبت في ذكر الوسائل والتقنيات التي تساعد على الوعي بالذات، يقابل ذلك وضوح القرآن الكريم في تبيان مفهوم الوعي الذاتي، وذكر جوانبه، وعوائقه، وتطبيقاته، والمقدمات والاستعدادات التي تؤهل له، وتجلية مفهوم الغفلة التي تشكل حالة مناقضة للوعي الذاتي، والسبل الموصلة لها، وينبغي أن يكون الفرق واضح وجلي للباحث المسلم بين ما يذكره الله تعالى من صفات النفس البشرية -كمكون رئيس للوعي الذاتي- وما تخلص له الأبحاث النفسية والتربوية في ذات السياق، إذ أن الأخيرة ظنية متغيرة بتغير النظريات وما يستحدث من دراسات قد ينقض آخرُها أولها -كما هي طبيعة العلوم الإنسانية-، بخلاف الآيات البينات ممن خلق النفس وسواها سبحانه وتعالى، وليس في هذا تقليل من الجهود البحثية في الميدان التربوي؛ بل هو تذكير بأولويات الباحث المسلم ليكون المنطلق من نصوص الوحي، واتخاذها ثابت موجه في هذا الميدان المتغير. **وهذا ما قاد الباحث لطرح سؤال رئيس وهو: ما بنية الوعي الذاتي في القرآن الكريم؟**

ISSN : 2410-1818

ويتفرع منه عدة أسئلة وهي:

- ما مفهوم الوعي الذاتي في القرآن الكريم؟
- ما المقدمات والاستعدادات المؤهلة للوعي الذاتي في القرآن الكريم؟
- ما المعوقات التي تقف دون حالة الوعي الذاتي المنشودة في القرآن الكريم؟
- ما انعكاسات الوعي الذاتي على الفرد المؤمن؟

أهداف الدراسة

هدفت الدراسة إلى تكوين نسق عام لمفهوم الوعي الذاتي من خلال القرآن الكريم، وتفرع عن ذلك مجموعة من الأهداف الفرعية وهي:

- بيان مفهوم الوعي الذاتي في القرآن الكريم.
- رصد الاستعدادات الأولية التي وهبها الله للإنسان وتمكنه من الوعي الذاتي.
- توضيح مفهوم الغفلة وما يتفرع عنه كحالة مناقضة للوعي الذاتي.
- استنباط المحصلة المرجوة من الوعي الذاتي على الفرد المؤمن.

أهمية الدراسة

تستمد الدراسة أهميتها مما يلي:

- تعد الدراسة من دراسات التأصيل إذ أن مرجعها القرآن الكريم، والأساس النظري لأي دراسة ينعكس على قيمتها وأهميتها.
- الحاجة الملحة لإرجاع المفاهيم النفسية والتربوية لأصلها الشرعي، فالنظريات والتطبيقات الغربية في المجال النفسي ترجع إلى ما يسمى بالباراديم أو الإطار المعرفي العام المحمل بفلسفاتهم، ونظرتهم الكلية للوجود، وللإنسان، والكون، وهو محل الاختلاف المرجعي بيننا وبينهم.
- يعتبر موضوع الدراسة غير مسبوق في مجاله -على حد علم الباحث- فهو يسعى لبلورة مفهوم الوعي الذاتي من خلال حشد المفاهيم ذات العلاقة في القرآن الكريم لتكوين صورة شاملة متكاملة.
- تستمد الدراسة أهميتها من قيمة الوعي الذاتي في القرآن الكريم، فهو عماد تستند إليه كثير من المفاهيم التي حرصت الشريعة على إبرازها كمحاسبة النفس، والحذر من الغفلة.
- يأمل الباحث أن تشكل الدراسة أساسًا نظريًا يمكن الباحثين من التوظيف التطبيقي له، ويشكل خطوة في طريق استجلاء هذا المفهوم في ظل قصور الدراسات التي تستقصي المفاهيم النفسية عمومًا والوعي الذاتي خصوصًا من القرآن الكريم.

ISSN : 2410-1818

حدود الدراسة :

ليس للدراسة حدود زمانية او مكانية وثمة حدود موضوعية وهي استقصاء مفهوم الوعي الذاتي من القرآن الكريم.

منهج الدراسة :

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي؛ من خلال استخدام الطريقة الاستنباطية التي يبذل فيها الباحث جهدًا عقليًا لاستخراج المعاني، وفي لسان العرب عند ابن منظور(٢٠٠٣م): "أنبطنا الماء أي استنبطناه وانتهينا إليه ... والاستنباط: الاستخراج. واستنبط الفقيه إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه"(مج7، ص410).

وفي القرآن الكريم: ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ (النساء:83).

قال الطبري (1420هـ) : "وكل مستخرج شيئاً كان مستتراً عن العيون أو معارف القلوب، فهو له مستنبط، يقال: استنبطت الرَّكيَّة، إذا استخرجتَ ماءها"(مج8، ص571).

و"الاستنباط اصطلاحاً: استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن، وقوة القريحة"(الجرجاني، 1403هـ، ص22).

"والألف والسين والتاء في استنبط تدلُّ على تطلُّبِ الشيء لأجل حصوله، وكأنَّ فيها معنى التَّكلُّفِ في إعمال العقل الذي يحتاجه المستنبط حال الاستنباط" (الطيار، 1439هـ، ص159).

مصطلحات الدراسة:

البنية في اللغة هي: ما يُبنى عليه الشيء؛ وبِنْية الجسد: تركيب أعضائه (ابن منظور، ٢٠٠٣م)

وقد جاء في المعجم الوسيط (٢٠٠٤م) أن البنية هي الهيئة التي يتركب منها الشيء، كأن يقال: بنية المجتمع، أو بنية النفس.

والمقصود تناول مفهوم الوعي الذاتي من حيث تركيبه ومعالمه ومعوقاته وانعكاساته، لتتضح بنية المفهوم وفق نسق قرآني.

الوعي في اللغة: هو الحفظ والإدراك والفهم، يُقال: وعى الشيءَ وعْيًا ووعِيًا: حفظه وفهمه وأدركه بعقله. (ابن منظور، ٢٠٠٣م)

والذات في اللغة كما في المعجم الوسيط (٢٠٠٤م) تُطلق على النفس أو الشخص نفسه، وهي جوهر الإنسان الذي يَعي ويشعر ويعمل. وعليه، فإن "الوعي بالذات" لغةً يعني :إدراك الإنسان لنفسه إدراكًا عاقلاً، وفهمه لما يصدر عنه من أفكار وأفعال ومشاعر.

ISSN : 2410-1818

الوعي الذاتي اصطلاحًا:

يعرفه دوفال وويكلند (١٩٧٢م) في كتابهما الذي أسس لنظرية الوعي الذاتي بأنه: قدرة الفرد على إدراك ذاته: أفكاره، مشاعره، دوافعه، نواياه، وسلوكياته، وقياسها في ضوء معايير داخلية وخارجية، مما يتيح له القدرة على تقييم ذاته وتعديلها.

ويعرفه الزغلول (٢٠٠٧م) بأنه إدراك الفرد لذاته، ومعرفته لقدراته، ومشاعره، ودوافعه، واتجاهاته، وأسلوبه في التفاعل مع المواقف المختلفة.

ومن زاوية إسلامية يرى الزيد (٢٠١٤م) بأن الوعي بالذات هو إدراك الإنسان لحقيقته، ووقوفه على ما في نفسه من نوازع وقيم وعيوب ومقاصد، في ضوء معايير الوحي، وهو ما يجعله سلوكًا تقويميًا أكثر منه حالة معرفية.

ويرى الباحث أن الوعي الذاتي الإجرائي لهذا البحث هو:

إدراك الإنسان لحقيقة ذاته إدراكًا شاملًا، يُحيط بمكوناتها النفسية من غرائز ونوازع وشهوات، ويكشف عن بواعثه الداخلية من نوايا ومقاصد، متجاوزًا بذلك آليات التبرير والحيل النفسية التي قد تحجب حقيقة طويته، وذلك في ضوء مرجعية الوحي التي تُمكّنه من تقويم ذاته وتزكيتها على بصيرة.

الإطار النظري والدراسات السابقة

المبحث الأول: مفهوم الوعي الذاتي في القرآن الكريم

يُعدّ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة في البناء الفلسفي الإسلامي مرجعًا تأسيسيًا للمفاهيم الكلية في الحقول التربوية والنفسية والاجتماعية؛ إذ يُمثّلان الإطار المرجعي الأعلى الذي يضبط المفاهيم، ويحدّد معالمها العامة، ويرسم حدودها المنهجية وفق رؤية متكاملة تنطلق من الوحي وتُعلي من قيمة الإنسان وغاية وجوده، ذلك أن كل نظرية أو مفهوم عام يحمل في جوهره حمولة فلسفية ترتبط بالسياق الثقافي والمعرفي الذي نشأ فيه، الأمر الذي يستدعي التحليل النقدي عند التعامل معه في بيئات مرجعية مغايرة. وعلى الرغم من أن هذه المفاهيم قد لا تتعارض بالضرورة مع المرجعية الإسلامية، إلا أن احتمال التعارض وارد في بعض منطلقاتها أو تطبيقاتها. ومن ثم، تبرز الحاجة إلى تفكيك تلك المفاهيم واستجلائها في ضوء مصادرنا الإسلامية الأصيلة، بما ينسجم مع البنية العقدية وسياقنا الحضاري للأمة، دون الاكتفاء بنقلها من خارج المنظومة ومحاولة تنقيحها أو مقاربتها لاحقًا.

يطلق علماء النفس مصطلح الذات ويريدون به النفس البشرية، ومن ثم نشأ مصطلح الوعي بالذات للدلالة على معرفة الإنسان لذاته، وقد لقيت دراسة هذا المفهوم صعوبات شتى على مستويين: المستوى التصوري للمفهوم؛ وذلك لغياب المحددات والتصورات الكلية للنفس البشرية، والاعتماد على

ISSN : 2410-1818

التنظيرات الفلسفية كمنطلق نظري لفهم مكنون النفس، وهذا ما ألجأ الباحثين في المجال النفسي إلى المستوى الثاني وهو المستوى الإمبريقي التجريبي لمحاولة بلورة الوعي الذاتي إلا أن دائرة الجدل اتسعت جراء التباين في المنطلقات الأولية في النظرة للنفس البشرية، وإمكان الوعي بها، والمؤشرات الدالة على محتواها، وتحديد مركزيتها بالنظر إلى تأثير المجتمع والبيئة المحيطة بها.

وثمة ندرة واضحة في دراسة مفهوم الوعي بالذات في الأدبيات النفسية، وقد ترجع هذه الندرة إلى مجموعة من العوامل والمعوقات، ومنها مشكلة ثنائية العقل والجسد، حيث افترض ديكارت وجود ثنائية مزدوجة تشمل ثنائية الروح مقابل الجسد، -وهذا يعد من التباين في النظرة لمكونات الوعي الذاتي-، وثنائية خبرة الوعي بالذات مقابل الوعي الخارجي الفيزيقي، وكان هذا محل سؤال جدلي من أين يأتي العالم الداخلي الذاتي، إذا كانت جوانب ضئيلة فقط من الخبرة هي التي تعد خارجية؟، وقد تأثر علماءُ النفس بهذه الثنائية حيث ظهرت فرضية ثنائية الوعي مقابل محتوى الوعي مما وضع الباحثين أمام التحدي التالي: كيف يمكن قياس الوعي بالذات بمعزل عن محتواه من أفكار، ومشاعر، ومعتقدات، وترتب على هذه الإشكالية صعوبات واجهت علماء النفس الذين حاولوا دراسة الوعي بصورته النقية، معزولًا عن محتواه من خلال المعالجة العصبية للوعي في المخ، حيث وجدوا صعوبة في إيجاد طرق محايدة لملاحظة المخ أثناء الأداء، وقاد ذلك كله إلى الإهمال النسبي للوعي كلية، تحت ذريعة أن العلم يحتاج إلى بيانات علنية ووقائع يمكن ملاحظاتها، وهذا ما لا يتسم به الوعي الذاتي الموغل في النسبية، وهذا ما جعل العلماء يستعيضون بمؤشرات حسية تدل على النفس البشرية، مفترضين أن معرفة الذات تتم بذات الطريقة التي نتعرف بها على الآخرين عبر ملاحظة السلوك (محفوظ، ٢٠٠١)

ولكون الوعي بالذات هو فرع عن مفهوم الوعي تتفق أغلب الدراسات العلمية والفلسفية حول اعتبار الوعي معضلة كبرى، وذلك ربما يعود إلى كون المفَسِر والمفَسَر شيء واحد، فمنذ ديكارت والمسألة قائمة كل يحاول مقاربتها اعتمادا على خلفيته المعرفية، وقد صنف الفيلسوف ديفيد جون أكثر من عشرين ألف رسالة كتبت حول الموضوع دون التوصل إلى اتفاق ولو بشكل ضئيل (ساكو، ٢٠٢١).

ومن خلال التسلسل السابق للمعوقات التي اعترضت علماء النفس حول تحديد مفهوم الوعي بالذات؛ تتجلى قيمة ومتانة المرجعية القرآنية عبر ما يلي:

-الموضوعية مقابل الذاتية.

يُعد مفهوم الوعي بالذات من المفاهيم المشكلة في حقل علم النفس والفلسفة على حد سواء، ويرجع ذلك - في أحد أبرز أسبابه - إلى أن الذات الواعية تحاول أن تفسر ذاتها من داخل تجربتها، أي أن المفسِّر والمفسَّر شيء واحد كما ذكر ساكو (٢٠٢١) في المرجع السابق، وهو ما يُقيد إمكانية

ISSN : 2410-1818

الوصول إلى تعريف جوهري للوعي. ومن هنا، فإن محاولات فهم الوعي بالذات تظل نسقية وداخلية، وتفتقر إلى المرجعية المتجاوزة التي تتيح منظورًا أوسعا. وهذا ما يفسر صعوبة تحديد مفهوم الوعي بالذات، كما يصعب تحديد معنى الحياة من داخلها دون الرجوع إلى مرجعية متعالية. ووفق التصور الإسلامي، فإن المرجعية المتعالية لا تتحقق إلا من خلال الوحي الإلهي، الذي يُعد المصدر الأسمى لفهم الإنسان لطبيعته ووظيفته وغايته. ومن هذا المنطلق، يكون دور العقل أن يتفاعل مع نصوص الوحي، ويعمل على استنباط الملامح والمحددات التي تشكّل الوعي الذاتي الحقيقي، بوصفه وعيًا مؤسسًا على فهم الغاية من الخلق، ومعنى الوجود، وعلاقة الإنسان بخالقه ونفسه والكون من حوله. وهكذا يتبلور مفهوم الوعي الذاتي في التصور الإسلامي من خلال تفاعل العقل مع الوحي، لا من خلال الاستبطان الذاتي المنفصل، مما يمنحه بُعدًا تكامليًا يزاوج بين المعرفة الروحية والعقلية في آنٍ واحد.

وهذا يتضح جليًا على نطاق مفهوم النفس في الخطاب القرآني -فضلاً عن باقي المفاهيم-، والذي يبين تفنيد القرآن بأسلوب موضوعي للنفس البشرية، وحالاتها وما يرتبط بها، وقد بينت دراسة أحمد (٢٠١٧م) هذا النسق القرآني في توصيف النفس البشرية، حيث استخدم الباحث المنهج التحليلي عبر التتبع البلاغي لسياق الآيات القرآنية التي تناولت توصيف النفس البشرية، حيث خلص الباحث لعدد من النتائج ومن أبرزها: الأسلوب البلاغي الدقيق في توصيف حالات النفس البشرية، وألوان قصورها وأوجه كمالاتها وأنماط علاجها، واستخدم القرآن أدوات البلاغة لتحديد وتمييز هذه الحالات المختلفة، وليس فقط للتنويع البلاغي، وهذا يعكس لنا الموضوعية القرآنية في تناول مفهوم تلج إليه الذاتية من كل باب، ما يجعل الباحث لا يجد أرضية صلبة ينطلق منها في تناول المفاهيم النفسية.

-الشمولية مقابل الاختزالية.

تعد الاختزالية من أكبر المعضلات التي تتسم بها مدارس علم النفس في نظرتها للإنسان بشكل عام، وللنفس البشرية ومفهوم الوعي الذاتي خصوصًا، وللاختزالية مظاهر عدة، فمنها ما تجلى في صراع المدارس النفسية المتعاقبة، إذ تركز كل نظرية على جانب من جوانب الإنسان ليكون مركزًا لفهمه وتفسير سلوكه، ومن ثم تنشأ نظرية أخرى لتبطل سابقتها وتلقي بالضوء على جانب آخر يكون هو المنطلق.

وهذا ما توصل له فضل السيد (٢٠١٩م) في دراسته التي تناول فيها مفهوم الطمأنينة في دراسة مقارنة بين القرآن الكريم والنظريات النفسية، وقد تبين للباحث أن القرآن الكريم قدم تصورًا شاملاً عن الطمأنينة، بينما لم تتجاوز التفسيرات النفسية إيضاح المعنى، وبعض العوامل المحققة للطمأنينة، وهذه إحدى أبرز السمات القرآنية في تناول المفاهيم التربوية والنفسية العامة -كما سيرد في البحث-،

ISSN : 2410-1818

حيث يورد القرآن الكريم مفهومًا متماسكًا ومتكاملاً، تبرز فيه الثوابت، وتتجلى أبعاده بحسب السياق الذي يرد فيه.

واتضح ذلك أيضًا من دراسة البساطي (٢٠١١م) التي تناولت مفهوم السكينة بدراسة موضوعية في ضوء القرآن الكريم، بينت من خلالها أبرز مظاهرها وأسبابها وسياقات ورودها في القرآن الكريم، ونماذجها التطبيقية التي وردت في سير الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، بطرح شمولي بعيد عن الاختزالية.

ومن مظاهر الاختزالية ما يسمى بالاختزالية الفيزيائية وهي امتداد للاختزال البيولوجي في علم النفس والذي يختزل الإنسان إلى مجرد تفاعلات كيميائية وبيولوجية في الدماغ والجهاز العصبي، متجاهلة العوامل النفسية والاجتماعية والروحية. ويحصر المشاعر والسلوك بالتغيرات الهرمونية أو النشاط العصبي دون اعتبار للجوانب الأخرى، ومن أبرز رواد هذه النظرة إيريك كاندل و روبرت سابولسكي ..

ومن مظاهر هذه الاختزالية الزعم القائل بأن "كل الظواهر التي يدركها الوعي الإنساني في العالم أو في النفس؛ يمكن اختزالها في تفسيرات فيزيائية، فالنظرية الاختزالية الفيزيائية تزعم أنه لا وجود إلا للأشياء المادية، وأن كل الحوادث لها علل فيزيائية بحتة، وهذه العلل هي التفسيرات لوقوع الحوادث أو وجودها" (براون، ٢٠١٣، ص١١)

وثمة من اتجه للاختزال السلوكي وهو منهج في علم النفس يركز على دراسة السلوكيات الظاهرة والقابلة للملاحظة دون الرجوع إلى العمليات الداخلية مثل الأفكار أو المشاعر. ينطلق هذا التيار من فرضية أن السلوك البشري يمكن فهمه وشرحه بشكل كامل من خلال المثيرات البيئية والعلاقات بينها وبين الردود السلوكية، وهي أشهر من سابقتها ومن أبرز روادها مؤسس المدرسة السلوكية واتسون وسكينر وإدوارد ثورندايك، وهي وإن حققت تقدمًا ملحوظًا في دراسات التعلم والتعليم إلا أننا هنا نتطرق للجانب الاختزالي .

وأما الاختزال المعرفي الذي نهجته المدرسة المعرفية فهو على العكس من المدرسة السلوكية، حيث يشير الاختزال المعرفي في علم النفس إلى المنهج الذي يسعى إلى تفسير الظواهر العقلية والسلوك الإنساني من خلال تحليل العمليات العقلية الداخلية مثل الإدراك، والذاكرة، وطرق التفكير، وهو مناهض لما نهجته المدارس السلوكية التي عنيت بالسلوك مباشرة، فالمدرسة المعرفية تعتبر السلوك محصلة نهائية للعمليات العقلية والمعتقدات ونحوها..

ISSN : 2410-1818

ومن أعجب صور الاختزال ما نهجته مدرسة التحليل النفسي ورائدها فرويد والتي ترى أن الإنسان محكوم بدوافع غريزية لا واعية (مثل الجنس والعدوان)، والتركيز على الصراعات النفسية في الطفولة كمحدد أساسي للسلوك مما يقلل من قيمة الإرادة الحرة والقيم الأخلاقية .

وقد اقترح إنجل نموذجًا أسماه النموذج التكاملي يحاول من خلاله تجاوز الاختزالات في مدارس علم النفس، ودعا إلى الأخذ بالاعتبار الجانب البيولوجي، والنفسي، والاجتماعي، ودور هذا التكامل في فهم طبيعة الإنسان (engel,1977)

وهذا حقق تقدمًا في النظرة الشمولية للإنسان، إلا أنه أغفل الجانب الديني والروحي في النظرة للإنسان..

كما قدم (Seligman,2002) محاولة للإتجاه نحو الشمولية عبر التركيز على بلورة علم النفس الإيجابي والذي يحاول أن ينقل اهتمام علم النفس من دراسة الاضطرابات النفسية فقط إلى دراسة الجوانب الإيجابية للحياة، مثل السعادة، والرضا، والنجاح الشخصي، والقدرات الإيجابية.

وتبرز الشمولية القرآنية في النظرة للذات الإنسانية بأبعاد شتى، كالبعد الروحي والنفسي والعقلي والجسدي والاجتماعي، والموازنة بين العقل والعاطفة، والروح والنفس، وهذا من شأنه أن يلفت الانتباه لكل هذه الجوانب عند السعي إلى تحقيق الوعي الذاتي الذي لا ينفك عنها جميعا .

كما أن هذه الشمولية فتحت المجال لتوظيف الجوانب العلاجية النفسية التطبيقية بمختلف أشكالها ضمن ما يصب في مصلحة الإنسان؛ مالم تتعارض مع الثوابت المحكمات، وهذا أكسبها المرونة في التعاطي مع مستجدات العلوم المعاصرة.

-الثبات مقابل النسبية.

تتمثل الثوابت في وجود إطار مرجعي ثابت لا يتغير بتغير الزمان أو المكان أو الظروف النفسية أو الاجتماعية، كالنظرة إلى القيم، والأساس الفطري في الإنسان، وجوانب الخير والشر في النفس البشرية، وهذه الثوابت تشكل محددات مرجعية للإنسان في وعيه بذاته، إنها تشكل من جانب هدفًا يحاول الإنسان المقاربة بينه وبين واقعه، ومن جانب آخر تمثل منارات يسترشد بها حين يخوض معترك الحياة ويبتعد عن محدداته المرجعية.

يقابل هذا الثبات نسبية مطلقة أو ما أسماه باومان (٢٠١٦) بحالة السيولة التي تتسم بها معظم مدارس علم النفس، لا سيما في مفهوم الوعي بالذات الذي طال الثوابت الفطرية التي جرى التسليم بها كالجندر، وامتدت السيولة لتطال القيم، وحاجة الإنسان للجانب الديني، والإيمان بالله وغير ذلك.

ISSN : 2410-1818

ولقد ساهم في طغيان النسبية شيوع الفلسفات ما بعد الحداثة والتي تشكك في النظريات الشمولية المتعلقة بالإنسان أو المجتمع، والمعارف المطلقة، وإرجاع القيم إلى سياقها الثقافي والاجتماعي، والفصل الحاد بين الدين بمطلقاته وبين التجربة الإنسانية، بالإضافة إلى عزله عن الجانب العلمي، كل ذلك بمجمله جعل النسبية هي الأساس، وحين نتحدث عن مفهوم الوعي الذاتي في ظل هذه النسبية فإننا نتحدث عن مفهوم لا يحده ثابت، وليس له إطار مرجعي، والتغير الدائم هو سمته الأبرز.

وهذا ما تبين في دراسة محفوظ (٢٠٠١م) التي تناولت: بنية الوعي بالذات: دراسة تحليلية سيكومترية، حيث هدفت الدراسة إلى تقصي وتحليل بنية الوعي بالذات على المستوى التنظيري، ضمن رؤى علماء النفس بمختلف مدارسهم النفسية، وبناء مقياس أولي للوعي بالذات، ويتضح من خلال الدراسة التباين الشديد بين مناظير علماء النفس لما يدرج ضمن الوعي بالذات وما يستبعد منه، وهذا عائد إلى أسباب عدة لعل من أبرزها: اختلاف المرجعيات، وكذلك اختلاف النظرة إلى بنية الإنسان ذاته، بما في ذلك نفسه وعقله وقلبه، فضلا عن جدل مفهوم الروح، ومن خلال ذلك كله تتجلى النسبية في المفهوم والمرجعية، والتي تؤول إلى أن تصبح المفاهيم الكبرى رهينة المرجعيات المختلفة.

-الغائية مقابل الماهية.

يمتاز مفهوم الوعي الذاتي في الإسلام عمومًا وفي الطرح القرآني على وجه الخصوص بالتركيز على الغاية منه، واعتباره وسيلة يليها تراتبية من الغايات الموصلة للغاية الكبرى وهي العبودية، وهذا بدوره يساعد الإنسان على بلوغ مراده لوجود غاية ينشدها، ومحددات تقنن له الطريق، وتسهل عليه إعادة التموضع حين يزيغ عن الصراط المستقيم.

في حين أن مدارس علم النفس ركزت على الماهية لتحديد جوهر الإنسان، وجعله غاية بذاته، كما ركزت على الجانب التطبيقي لإيجاد تقنيات عملية تساعد الفرد في فهم ذاته، وفي هذه الجزئية حققت تقدمًا لا ينكر، ومنها تم توظيف الفلسفات الإنسانية إلى نماذج تطبيقية كاستخدام الجدل السقراطي، وتقنيات العلاج السلوكي المعرفي، وغيرها من الجوانب الفنية .

ISSN : 2410-1818

-المعنوي مقابل المادي

لا تنفك العلوم النفسية المعاصرة عن التأثر بإطارها المعرفي أو ما أطلق عليه توماس كون (٢٠١٧) بالبارادايم Paradigm ويقصد به مجموعة من المفاهيم، والمعتقدات، والمسلمات، والأساليب، والنظريات التي يتبناها مجتمع علمي أو فكري في فترة زمنية معينة، ويُفسّر من خلالها الظواهر، ويُوجّه بها البحث والتفكير.

وقد شكلت المادية مكونًا رئيسًا ضمن البارادايم الذي تحتكم إليه مدارس علم النفس، والتي ساهمت في تشكيل صورة مادية للإنسان، وحاولت أن تطبق المعايير العلمية الخاصة بالعلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية، فتحول الإنسان عبر هذا المنظور إلى مادة يمكن قياس كل ما يتعلق بها، وتم تحويل الجزء المعنوي فيه إلى جزء مادي يمكن للمقاييس أن ترصده وتقيسه.

لكن المادية فشلت في تفسير إصرار الإنسان على أن يجد معنى في الحياة، وحينما يغيب عنه المعنى؛ فإنه لا يستمر في الإنتاج المادي، وإنما يصبح عدميًا يتعاطى المخدرات، وينتحر، ويرتكب جرائم دون سبب مادي واضح، وقضية المعنى تزداد حدة مع تزايد إشباع الجانب المادي في الإنسان، وهذا دليل على أن إنسانية الإنسان لصيقة بشيء آخر غير مادي (المسيري، ٢٠٠٢)

فالاختزالية المادية، وسيطرتها على جوانب حياة الإنسان، وجعلها عوضًا عن الجانب المعنوي؛ دفع بالإنسان المعاصر إلى مزيد من الأزمات النفسية، ونتيجة لذلك ظهرت نظرية المعنى والتي أسسها فرانكل واعتُبرت المدرسة الثالثة في علم النفس، وكان هدفها إعادة الجانب المعنوي لمكانه الطبيعي، وإعادة الدين لمركزيته في العلاج النفسي، وبيان دوره الفاعل في إعطاء معنى للحياة، وهذا ما أشار له بقوله: "حينما يكون المريض واقفًا على أرض صلبة من الاعتقاد الديني، فلا يمكن أن يكون هنالك اعتراض بشأن الاستفادة من التأثير العلاجي لمعتقداته الدينية، مما ينبع من المصادر الروحية ويعتمد عليها" (فرانكل، 2017، ص126).

وقد أشارت عدد من الدراسات إلى دور الدين الفاعل في تغذية الجانب المعنوي للإنسان، والعلاقة الموجبة الدالة إحصائيًا بين التدين ومعنى الحياة كدراسة كل من Hicks Kings, 2008; Stager & (Frazier, 2005) وتوصلت دراسة abeyta & routledge (2018) إلى أن الحاجة لمعنى الحياة ارتبطت ارتباطًا كبيرًا بالتدين، وهذا يعكس دور الدين في حفز الإنسان للبحث عن معنى وجوده. كما أن الدين يؤثر على التصورات العقلية للإنسان، وبالتالي فإن رؤيته للكون وتصوره عن الوجود له علاقة بتدينه.

ISSN : 2410-1818

ولو لم يرد هذا المصطلح في النصوص الشرعية إلا أن مجمل المفاهيم الواردة في القرآن الكريم ذات العلاقة بالوعي الذاتي تقود إلى بلورة مفهوم قرآني خاص يجلي النفس البشرية؛ للوصول إلى حالة من الوعي بها، بغية مراقبتها وتزكيتها والحذر من آفاتها، وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز صفات النفس ودوافعها وأنواعها، وبذلك يكون الإنسان على معرفة بطبيعة ذاته، وهي الخطوة التي تسبق الضبط والتوجيه، وسأعمد في هذا المبحث إلى إيراد شيء من صفات وأنواع النفس البشرية في القرآن الكريم، وتأثير ذلك على السلوك، وهذا يشكل جزءًا رئيسًا من مفهوم الوعي الذاتي في القرآن، يليه باقي الأجزاء في المباحث التالية والتي تكمل النسق القرآني لهذا المفهوم.

مكونات النفس البشرية:

ومن جملة ما في النفس الشهوات والملذات، قال تعالى: ﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾ (سورة الزخرف، آية ٧١) وداخل في ذلك عموم الهوى لقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ**﴾(سورة النازعات، آية ٤٠)، فالهوى الذي حذر الله تعالى منه في مواطن كثيرة، وبين أنه باب للضلال على مستوى الشبهات والشهوات؛ يعد مكون رئيس من مكونات النفس البشرية.

وفي النفس تكمن المشاعر، ومما بينه الله تعالى حول ذلك؛ قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة الشعراء، آية 3)، وفيها عاطفة التحسر والحزن، قال تعالى: ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ**﴾ (سورة فاطر، آية ٨)، وفيها الخوف، قال تعالى: ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ**﴾ (سورة طه، آية ٦٧)، وهذا طرف من الآيات التي تربط المشاعر بالنفس البشرية.

وفي النفس الدوافع المختلفة، وتعرف الدوافع بأنها: "القوى المحركة التي تبعث النشاط في الكائن الحي، وتبدئ السلوك، وتوجهه نحو أهداف معينة، وتؤدي للكائن وظائف مهمة، فهي التي تدفعه للقيام بإشباع حاجاته الأساسية لبقاء حياته"(نجاتي، 1982م، ص23).

ومن أمثلة الدوافع دافع التملك، قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ**﴾ (سورة آل عمران، آية ١٤)، وقال تعالى: ﴿**وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾ (سورة الفجر، آية٢٠)

ISSN : 2410-1818

وكذلك دافع التدين ذو الأساس الفطري، الذي دفع الإنسان على مر العصور بالتأمل في الوجود والتفكير في موجده، ما حمل البشر على اتخاذ معبودات مختلفة لسد هذه الحاجة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم،آية٣٠)

وللنفس سمات متنوعة يشترك فيها البشر، ويختلفون في درجتها، ومن هذه السمات سمة الضعف، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء،آية٢٨)، فالإنسان ضعيف في أصله، لا يملك دفع الضرر عن نفسه، أو تدبير أمره، مالم يكن له عون من الله.

وفي الإنسان سمة اليأس، لا سيما إن أصيب بمكروه مما لا مناص للبشر عنه، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ (سورة هود، آية٩)، يقول السعدي (٢٠٠٣م) مبينًا ملازمة هذه السمة للنفس: "هذه طبيعة الإنسان من حيث هو إلا من هداه الله، فإذا مسه الشر يأس وظن أن ماهو فيه دائم)(ص٤٦٥).

ومن سمات النفس البشرية العجلة، ما تحمله على قلة الصبر، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (سورة الأنبياء، آية٣٧)، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ (سورة الإسراء، آية١١)، وتحمله هذه العجلة على حب الدنيا لاتسمها بذلك، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ (سورة القيامة، آية٢٠-٢١).

وتنزع النفس إلى الجدل والخصام بما يذب عنها ما لا ترغبه، وبما يشرع لها ما تريد، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (سورة الكهف، آية٥٤)، ويُستصحب الجدل مع النفس حتى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ (سورة النحل، آية ١١١). ويقول الله تعالى في سمة من سمات النفس: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ (سورة النساء، آية١٢٨)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحشر، آية ٩)، وينقل الطبري(٢٠٠٠م) أن أبا الهياج الأسدي قال: " كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلا يقول: اللهمّ قني شحّ نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال. إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل شيئًا، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف" (٢٣/٢٨٨)

ويتضح من المشاعر والدوافع والسمات أعلاه: أنها ملازمة لنفس الإنسان، ولها حد طبيعي مالم تجاوز شرع الله، إذ أن معظمها تشكل عوامل بقاء للإنسان، وتأتي التربية والتزكية بمثابة الإرتقاء من تغول هذه السمات وطغيانها على الإنسان، وقد جلاها الله لعباده ليكونوا على بصيرة من عواقب الغفلة عنها، وهنا تتضح قيمة وعي الإنسان بذاته إزاء هذه المكونات، إذ هي الخطوة الأولى قبل

ISSN : 2410-1818

التزكية، فنزعة التملك مثلاً قد تحمل صاحبها إلى مجاوزة حقه إلى حقوق غيره، وسمة الجدل قد يخدع بها الإنسان نفسه بتبرير سلوكه ولو كان منحرفًا، وسمة العجلة واليأس باب للقنوط من رحمة الله وضعف الثقة به، ونجد أن معظم هذه المكونات هي باب لآفات القلوب متى جاوزت حدها، وقد حذر الله تعالى من العواقب النهائية التي يؤول لها الإنسان جراء مرض قلبه بما يفسد دنياه وآخرته.

ويمتد تأثير ما بالنفس ليؤثر على السلوك ذلك أن النفس البشرية تحتوي على المشاعر والدوافع والتصورات والتي تؤثر بمجملها على سلوك الإنسان وتوجهه، وهذا مما درجت عليه مدارس علم النفس بأنواعها، بل قد يمتد ذلك إلى التأثير على الأفكار والأحكام، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ﴾ (سورة المائدة، آية ٨) وينبغي على المسلم أن يكون على وعي تام بما تطويه نفسه، إذ أن ذلك سينعكس على عمله الحسي والقلبي، وهذا يبين أهمية الوعي الذاتي بمنظور قرآني، إذ يبنى عليه عمل المؤمن وتحديد مصيره.

وإذا كانت النفس مصدرًا للسلوك فلا بد أن تكون النفس الإنسانية مصدرًا لدوافع السلوك، ففيها الفكر والغرائز والاستعدادات والقابليات والأحاسيس والعواطف، والإنسان يصدر سلوكه عن كل ما استودع فيه (الخطيب، ٢٠٠٤م)

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٞ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ﴾ (سورة آل عمران، آية ١٦٥) وقال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ (سورة المائدة، آية ٣٠)، وقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (سورة فصلت، آية ٢٣) وما يلقاه الإنسان هو انعكاس لعمله الذي نشأ عما بنفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ (سورة آل عمران، آية ١٥٥) وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ﴾ (سورة المائدة، آية ٤٩) ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين، آية ١٤)

المبحث الثاني: المقدمات والاستعدادات المؤهلة للوعي الذاتي

لم يكلف الله البشر بما ليس في مقدورهم، فكل حكم أو مقصد شرعي؛ هيأ الله تعالى للبشر أسبابه وما يمكنهم من تحقيقه، ثم جاء الاستثناء لذوي الأعذار ممن لا يملكون المقومات التي تعينهم على تحقيق هذا المراد، ولأن الوعي الذاتي وسيلة للوصول إلى تزكية النفس، وسمو الأخلاق؛ فقد مكَّن الله البشر من قدرات واستعدادات تهيئهم لذلك، ومنها ما يلي:

- الإمكانية:

للنفس أغوار وأسرار يدق خفاها حتى ليعسر على الفرد معرفة ما تطويه نفسه معرفة تامة فضلاً عن نفوس الآخرين، لكنه وإن عسر فهو ممكن، بدلائل الآيات والأحاديث، وكذلك بالعلم التجريبي،

ISSN : 2410-1818

فهذا الإمكان يعد من القدرات التي هيأ الله تعالى بها الإنسان؛ ليكون على بصيرة بما تطويه نفسه، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾ (سورة القيامة، آية ١٤-١٥)

وينبغي لمستنبط المفاهيم من القرآن الكريم أن يربط الآيات ببعضها ليخلص إلى المفهوم الكلي، ففي قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (سورة الذاريات، آية ٢١) أمر من الله للبشر بالتفكر والتبصر في النفس بالإضافة إلى الآيات ذوات العدد التي حث الله فيها على التفكر بهذه لنفس، وبالمقابل فإن الله عز وجل قد قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة، آية٢٨٦) فمن مجمل هذه الآيات نستنتج أن الله لم يكلف نفسًا إلا وسعها، ومعرفة ما بالنفس داخل في دائرة الوسع؛ وإلا لما كلفه الله بذلك، وإن كان ذلك معلوم لدى كثير من الناس، غير أنهم يمارسون أفعالا كثيرة فيها من الكبر والتعالي وحظوظ النفس ما قد يجهلونه، ويظنون أنهم معذورون بجهلهم، رغم إقرارهم بإمكان معرفة ما بالنفس، فهذا الجهل ليس مما يعذر الإنسان به، إذ أنه لو حاسب نفسه وراقبها وصدق في ذلك، لعلم ببواطن نواياه، وهنا تتجلى قيمة الوعي الذاتي من منظور التربية الإسلامية.

-الفطرة:

يُعدّ مفهوم الفطرة من المفاهيم الجوهرية التي ترتكز عليها الرؤية الإسلامية لفهم الإنسان، فهي ليست مجرد ميل نفسي أو استعداد طبيعي، بل هي بنية أخلاقية وروحية أصيلة مودعة في الإنسان، تمثل مرجعًا داخليًا سابقًا للتجربة والتنشئة، وتهيّئه للاستجابة لنداء الحق والالتزام بقيم الخير.

يرى طه عبد الرحمن أن الفطرة تُعدّ منطلقًا معرفيًا وأخلاقيًا لفهم الذات، إذ تمنح الإنسان قدرة على التمييز الفطري بين ما ينبغي فعله وما يجب اجتنابه، وهي بهذا تمثل أحد أهم مصادر الوعي الأخلاقي بالذات .فالوعي الحقيقي، في هذا السياق، لا ينحصر في المعرفة العقلية أو التأمل الذاتي المجرد، بل يتجذّر في إدراك الإنسان لما هو مغروس فيه من قيم ومعاني. وهذا ما يُعبّر عنه بمصطلح "الرجوع إلى الذات"، والذي يقصد به العودة إلى الفطرة لاستجلاء الحقيقة الأخلاقية واستعادة الصفاء الداخلي (عبدالرحمن، ٢٠٠٧م).

في المقابل، يُحذّر طه عبد الرحمن من "قتل الفطرة"، ويعتبره من أخطر أشكال اغتراب الإنسان عن نفسه. إذ إن تدمير الفطرة لا يعني فقط ضياع المرجعية الأخلاقية، بل أيضًا تشويه الوعي بالذات، لأن الفطرة تُشكّل الضامن الداخلي للصدق مع النفس والانفتاح على المعنى. فحين تُطمس الفطرة، يُصاب الإنسان بما يُمكن تسميته "عمى روحي"، يجعله عاجزًا عن فهم ذاته فهمًا سليمًا، وعرضة للوقوع في نماذج زائفة من تحقيق الذات تُروّجها الحداثة المادية، والتي كثيرًا ما تفصل بين الحرية والمعنى، وبين الفرد والمسؤولية (عبدالرحمن، ٢٠٠٠م).

ISSN : 2410-1818

وبذلك، يُمكن القول إن الفطرة ليست فقط أصل الأخلاق، بل هي شرط إمكان الوعي الذاتي الكامل .إذ من خلالها يتجاوز الإنسان مجرد المعرفة الذاتية إلى الوعي الأخلاقي الوجودي الذي يربط بينه وبين خالقه، ويُحدد موقعه في الكون، ومسؤوليته تجاه نفسه والآخرين. ومن هنا، يصبح التفاعل بين الفطرة والعقل، في ضوء الهدي الإلهي، هو السبيل إلى تحقيق الذات في أرقى صورها.

-ملكة التمييز:

مكن الله عز وجل النفس البشرية من القدرة على التمييز بين الخير والشر، والفجور والتقوى، لتكون هذه الملكة فطرية تمكن الإنسان من معرفة ما بنفسه، وتمييز الخير من الشر، قال تعالى: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)،

والمراد من إلهام الفجور والتقوى: إفهامهما وإعقالهما، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح وتمكينه من اختيار ما شاء منهما، وهو كقوله: ﴿**وهديناه النجدين**﴾ [البلد: ١٠] ، قالوا: ويدل عليه قوله بعد ذلك: ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ ﴿**وقد خاب من دساها**﴾، وهذا الوجه مروي عن ابن عباس وعن جمع من أكابر المفسرين (الرازي، ١٤٢٠هـ، ١٧٧/٣١)

إن هذه الملكة الفطرية تُعدّ الأساس الذي يُبنى عليه الوعي الأخلاقي، فهي تُمكّن الإنسان من استجلاء ما بنفسه، ومحاسبتها، وميلها أو انحرافها. وهي بذلك تمثل منطلقًا داخليًا للوعي بالذات، لا يُكتسب بالتجربة وحدها، بل ينبثق من أعماق التكوين الإنساني، ويتواءم مع الهدي الإلهي والوحي. فالفطرة هنا ليست حيادية، بل موجهة نحو إدراك القيم وتزكية النفس، مما يمنح الإنسان مسؤولية عظيمة في توجيه اختياراته، ويدعوه إلى مجاهدة النفس والسمو بها.

وهذا يعزّز القول بأن القيم في التصور الإسلامي ثابتة وفطرية، مغروسة في أصل التكوين الإنساني، وليست مجرد مكتسبات ثقافية أو نتائج لتجارب ظرفية. فالفطرة، كما بيّن الوحي، تمكّن الإنسان من معرفة هذه القيم، وتمييزها، والميل إليها بطبعه السليم، وهو ما يتناقض بوضوح مع الأطروحة الحداثية التي تُقرّ بنسبية القيم واعتبارها نتاجًا مشروطًا بالبيئة والتاريخ والثقافة. هذه النسبية تؤدي إلى تذويب الثوابت الأخلاقية، وتفتح الباب أمام تبرير السلوكيات دون مرجعية قاطعة للتمييز بين الخير والشر. أما في الرؤية القرآنية، فالفطرة تمثل أصلًا مشتركًا بين البشر، تجعل من القيم الأخلاقية مثل العدل والصدق والرحمة والتزكية، قواعد راسخة لا تتبدل بتبدل السياقات، وإن تفاوت الناس في التزامهم بها. ومن هذا المنظور، تصبح الفطرة ضامنًا موضوعيًا لثبات المعايير الأخلاقية، وركيزة أساسية في تأسيس الوعي الذاتي على قاعدة من الاستقامة والتكليف، لا على النسبية والاضطراب.

ISSN : 2410-1818

-ملكة التفكر:

منح الله تعالى الإنسان ملكة التدبر والتفكر لا لتكون أداة عقلية مجردة، بل لتكون وسيلة من وسائل تحقيق الوعي الحقيقي بذاته وغايات وجوده .فالتفكر في الآيات الكونية والنفسية، والتدبر في معاني الوحي، يدفع الإنسان إلى الانتباه لما في داخله من قدرات ومقاصد، وإلى إدراك موقعه بين الخلق، والغاية من وجوده، وحدود مسؤوليته. وهذه كلها مكونات جوهرية للوعي بالذات.

وقد حثّ الله عز وجل في مواطن كثيرة من القرآن الكريم على التفكر والتدبر، ليس فقط في آيات الكون، بل أيضًا في النفس البشرية، وفي تاريخ الأمم الغابرة، وذلك لما في هذه الأنواع من التأمل من أثر عميق في إيقاظ العقل، وتفعيل ملكة الوعي، واستخلاص العبر. يقول تعالى :﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت**﴾ (سورة الغاشية، آية ١٧)، وفي ذلك دعوة إلى تأمل الخلق كوسيلة للوصول إلى معرفة الخالق، ويقول :﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل**﴾ (سورة الروم، آية ٤٢) دعوة إلى قراءة التاريخ وتفحّص مصائر الأمم ليفهم الإنسان سنن الوجود. بل ويدعو القرآن إلى التفكر في النفس ذاتها :﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ (سورة الذاريات، آية ٢٤) وهذه الدعوات المتكررة تعكس مركزية التفكر في بناء الوعي الذاتي، إذ لا يكتفي الإنسان بأن يعيش تجربته، بل يُطالب بأن يتأملها، ويراجع دوافعه، ويُدرك موقعه في نظام الوجود. وهذا ما يجعل التفكر والتدبر من أدوات تحقيق الوعي الأخلاقي والتكويني بالذات، لا مجرد أنشطة عقلية محايدة. فبقدر ما يُفعّل الإنسان هذه الملكة، يكون أقدر على استحضار فطرته وتزكية نفسه، وتوجيه إرادته نحو الخير، استجابة لنداء الوحي والفطرة معًا.

-ملكة التعلم:

لقد مكّن الله تعالى الإنسان من ملكة التعلم، وجعلها من أعظم الهبات التي تميّز بها عن سائر المخلوقات، كما ورد في قوله تعالى :﴿**وعلّم آدم الأسماء كلها**﴾ (سورة البقرة، آية ٣١)، وهي الآية التي يُستدل بها على شرف الإنسان بالعلم، وارتباط العلم بالوعي. فملكة التعلم في العلوم التربوية الحديثة تعتبر ملكة محايدة يمكن تسخيرها لتعلم ما يريده الإنسان، بعيدًا عن البعد الأخلاقي والوجودي، إلا أنه في التصور الإسلامي لا يعد مجرد عملية معرفية محايدة، بل هو فعل وجودي وتربوي يساهم في تكوين الذات وتزكيتها .إذ من خلال التعلم، يدرك الإنسان جهله، ويتدرج في فهم نفسه، ويتعرف على مكنوناته، وحدوده، ومسؤوليته، فيتحقق بذلك أحد أعمدة الوعي الذاتي .

والتعلم في الرؤية القرآنية ليس غاية في ذاته، بل هو وسيلة للهداية، والسمو الأخلاقي، وتحقيق الكمال الإنساني، إنه يقود وسائر الملكات السابقة إلى غاية عليا وهي تحقيق العبودية لله عز وجل،

ISSN : 2410-1818

مروراً بمراتب تحقق هذه الغاية النهائية ومنها حسن سياسة النفس البشرية وتزكيتها والذي يعد الوعي بالذات أحد الركائز الرئيسة لذلك.

كما أن من ثمرات التعلم أنه يُمكّن الإنسان من النقد الذاتي، ويمنحه أدوات التفكر، والمراجعة، والتقييم، وهي كلها عناصر أساسية لبناء الوعي بالذات. ولهذا ارتبط العلم في الإسلام بالتقوى، كما في قوله تعالى :﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ (سورة فاطر، آية ٢٨)، مما يدل على أن التعلم الذي لا يقود إلى وعي أخلاقي وروحي يُعدّ قاصرًا. ومن هنا، فإن تمكين الإنسان من التعلم يُعد تمكينًا له من معرفة نفسه، وتزكيتها، وتحقيق الغاية من وجوده في إطار من التكامل بين العقل والوحي.

-ملكة الحواس:

منح الله تعالى الإنسان منظومةً حِسِّيةً متكاملة - كالسمع والبصر واللمس - لتكون جسراً بينه وبين العالم الخارجي، ومدخلاً أساسياً للمعرفة والتجربة. لكن القرآن الكريم يطرح رؤيةً أعمق للحواس، لا تقتصر على وظيفتها البيولوجية، بل تمتد إلى أبعاد معرفية وأخلاقية، كما في قوله تعالى: ** ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾** (سورة الإسراء، آية ٣٦) وهنا تستحيل الحواس من كونها المنافذ الأولية للوعي إلى مسؤولية أخلاقية ينبغي أن يكون الفرد شديد المحاسبة لما ينفذ من خلالها، إذ أن هذه المدخلات الأولية ستساهم في تشكيل الذات، وبناء الاعتقادات والتصورات، وهذا النوع من الرقابة على الحواس يعد البوابة الأولى للوعي الذاتي، فالوعي بالذات هو إدراك لمكنوناتها، وهذه الرقابة هي إدراك لما سيسهم في تشكيل هذه المكنونات، ومن هنا تكتسب أهميتها.

فالحواس في المنظور القرآني تُشكِّل جزءاً من نظامٍ إدراكيٍ متكامل، يبدأ باكتشاف العالم الخارجي، ثم يرتقي إلى تمييز الذات ووعيها بموقعها في الوجود، وصولاً إلى إدراك الغاية من الخلق. وهكذا تتحول من مجرد أدواتٍ لتلقي المثيرات إلى وسائلَ للتفكُّر والتأمُّل، اللذين يُعدَّان بوابةً للوعي العميق بالذات والكون .

ولا ينفصل هذا البعد المعرفي عن الجانب الأخلاقي، حيث تُصبح الحواس أداةً لتهذيب النفس وتزكيتها. فكما تُؤكِّد أدبيات الأخلاق الإسلامية، فإن ضبط الحواس وتوجيهها يُسهم في صقل الوعي الداخلي، ويربط بين الإدراك الحسي والسمو الروحي، وبهذا يتجلى التكامل في الرؤية الإسلامية بين الوظيفة المادية للحواس كأدوات إدراك، ووظيفتها المعنوية كوسائل لتحقيق الوعي الوجودي والأخلاقي، مما يُبرز شمولية النظرة الإسلامية لقدرات الإنسان الجسدية والروحية، ويجعل من الحواس نعمةً إلهيةً تستوجب الشكر والحفظ.

ISSN : 2410-1818

قال تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) (سورة الأعراف، آية ١٧٩) لم تتعطل حواس الكافرين تعطلا وظيفيا، فهم يسمعون الأصوات ويبصرون الأشياء، ولكن عند تعطل وظيفتها المعنوية، وغاية خلقها كأدوات ترشد للحق، وصمها الله تعالى بالتعطل عن العمل، فقد جعلهم الله "لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان" (الزمخشري، ١٩٨٧م، ١٧٩/٢)

المبحث الثالث: معوقات الوعي الذاتي في ضوء القرآن الكريم

يُعدّ الوعي الذاتي ركيزة أساسية في تشكيل شخصية الفرد وتوجيه سلوكه، فهو يعبّر عن الإدراك الواعي للذات بما تشمله من إمكانات وحدود وواجبات، ويُعتبر مدخلًا ضروريًا للتكليف الشرعي. وقد أولى القرآن الكريم هذا الجانب عناية فائقة، سواء عبر الحثّ على اكتسابه من خلال التأمل والتفكّر ومحاسبة النفس، أو عبر التنبيه إلى العوائق التي تحول دون بلوغه. فالإنسان لا يأتي إلى الحياة بوعي تامّ بذاته، بل يُزوّد بأدوات وملكات تمكّنه من ذلك، كالفطرة السليمة والعقل السديد والحواس اليقظة، إلا أن هذه الأدوات قد تتعرّض للإضعاف أو التشوّه بفعل عوامل نفسية واجتماعية.

وعلى هذا الأساس، يمكن التطرق إلى معوّقات الوعي الذاتي كما يصورها القرآن الكريم، وهي تلك الصفات أو الممارسات التي ورد ذكرها في القرآن بوصفها عراقيل تحجب الإنسان عن إدراك ذاته أو أداء دوره الوجودي. وهذه المعوقات وإن اختلفت أشكالها، تجتمع في كونها تبعد الإنسان عن فطرته النقية، وتُضعف صلته بمصدر الهداية الإلهية، وتقوّض قدرته على التزكية النفسية والمراجعة الذاتية، ومن ثمّ فإن تحليل هذه المعوّقات في ضوء النصوص القرآنية يُمثّل خطوة ضرورية لفهم حقيقة الوعي الذاتي في الإسلام، وسبل تعزيزه وحمايته من الانحرافات التي قد تُحيط به.ومن هذه المعوقات ما يلي:

-نسيان الله تعالى:

ونسيان العبد لربه سبب موجب لأن ينسيه ربُه نفسَه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (سورة الحشر، آية ١٩) فلما نسوا ربهم أنساهم أنفسهم وذلك بأن ينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها، وينسيه أمراض نفسه وقلبه، فلا يخطر بقلبه مداواتها، وهذا من أعظم العقوبة، وأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها، ونسي مصالحها وداءها ودواءها (ابن القيم، ١٤١٠هـ).

ISSN : 2410-1818

وهذا يعكس الأهمية البالغة للوعي بالذات من منظور قرآني، إذ أن صورة من صور عقاب الله لمن نسيه: أن ينسيه نفسه وذلك بصور شتى يهمنا منها ما أشار إليه ابن القيم من الغفلة عن عيوبها، وتفاقم آفاتها دون وعي منه بذلك.

وحين تنظر إلى رؤية نظرية علم النفس التحليلي كمثال لأبرز سبب علمي لغياب الوعي بالذات، فإنه سبب يبدأ وينتهي بالإنسان ذاته، إذ أنهم يرجعون هذه الحالة من الجهل بالذات إلى ما يسمى بالدفاعات النفسية اللاواعية(Unconscious Defense Mechanisms) ومن ضمنها حالة الإنكار (Denial) حيث يرفض الفرد الاعتراف بوجود مشكلة أو خلل في سلوكه أو مشاعره، مما يؤدي إلى تشكل صورة زائفة عن الذات، تعيق محاسبتها أو تطويرها(Corey, 2017) .

وهذه الحالة من الإنكار تردها نظرية التحليل النفسي إلى الإنسان ذاته، ويردنا القرآن إلى سبب أعلى وهو نسيان العبد لربه، الذي يورثه حالة من التيه تتمثل في صورة غياب الوعي بالذات، والحالة المناهضة لذلك هي ذكر الله تعالى والذي سيورده الباحث ضمن الوسائل.

وحين ينسى الإنسان نفسه، ولا يبصر عللها، أو بتعبير مدرسة التحليل النفسي يرفض الفرد الاعتراف بوجود مشكلة أو خلل في سلوكه، يصبح تفسير الإنسان لسلوكه ولما يحيط به بمنأى عن مراد خالقه، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة التوبة، آية ١٢٦) فهم يكررون ذات الأخطاء الموجبة للبلاء ولا يربطون ذلك بمحصلة سلوكهم، بل قد يصل الأمر إلى تزييف الحقائق البينة، ليخلق حالة من التماهي مع الواقع، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ (سورة الطور، آية ٤٤)

-الغفلة

يلجأ الإنسان في وضعه الطبيعي إلى الغفلة أو بتعبير علم النفس إلى الشرود الذهني -mind wandering ، إذ أنها حالة لا تتطلب جهدًا أو هدفًا ينشد الإنسان بلوغه، وأما حالة الوعي أو اليقظة فإنها تتطلب منه جهدًا مركزًا ومستمرًا، وهذا ما أثبته ماثيو وغلبرت (٢٠١٠م) في دراستهما التي تناولا فيها علاقة الغفلة أو الشرود الذهني بمعدل السعادة، وبلغت عينة الدراسة ٢٢٠٠ شخصا من خلفيات متنوعة، وخلصت الدراسة إلى عدد من النتائج من أبرزها: أن الشرود الذهني هو الوضع الافتراضي للعينة، مما يدل على أن الذهن يميل بطبيعته إلى الابتعاد عن اللحظة الحاضرة. والتي هي متطلب للوعي، كما خلصت الدراسة إلى أن الشرود الذهني مرتبط بانخفاض السعادة، بينما التركيز على اللحظة الحالية المرتبطة بالوعي يعزز السعادة.

ISSN : 2410-1818

ولذلك فإن هنالك محفزات للوعي مهمتها أن تبقي الإنسان في حالة من اليقظة الدائمة، إذ أن الإنسان من طبيعته أن يثاقل إلى الأرض إذ غفل عن نفسه، وكلما ابتعد عن هذه المحفزات انغمس أكثر في غفلته والتي بدورها تغيبه عن وعيه بذاته، ومن هذه المحفزات:

تذكر اليوم الآخر: والذي هو تنبيه للغافلين برسالتهم ودورهم الوجودي الذي خلقوا من أجله، والذي يحفزهم لليقظة بمراقبة دواخلهم وسلوكهم ووجهتهم التي يقصدونها، وقد ربط الله عز وجل بين الغفلة والتذكير باليوم الآخر في مواطن عدة ومنها: قال تعالى :﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ (يورة الروم، آية ٧)

وقال تعالى :﴿ **وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ** ﴾. (سورة مريم، آية ٣٩)
وقال تعالى :﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ** ﴾. (سورة الأنبياء، آية ١)
وقال تعالى :﴿ **وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ (سورة الأنبياء، آية ٩٧)

كما جعل الله عز وجل تذكر الموت محفز للتذكير بالآخرة وبذات الهدف الذي يوقظ الغافلين، وكذلك ربطه بحالة الغفلة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (سورة ق، آية ٢٢)

ففي الحديث ***(زوروا القبورَ فإنَّها تذكِّركم الآخرةَ)*** *(رواه ابن ماجه، ج١/٥٠٠)* وعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ :أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشِرَ عَشَرَةٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَنْ أَكْيَسُ النَّاسِ وَأَحْزَمُ النَّاسِ؟ فَقَالَ: أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ، وَأَشَدُّهُمُ اسْتِعْدَادًا لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ، أُولَئِكَ هُمُ الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ .(رواه الطبراني،ج١٢/٤١٧ ، حديث رقم ١٣٥٣٦).

وهنا ينص النبي صلى الله عليه وسلم على أكثرهم استعدادا للموت قبل نزول الموت، وهذا الاستعداد كفيل بأن يضفي على الفرد حالة من اليقظة والرقابة، وغياب هذا المحفز هو الذي يجعل الإنسان"يلهث وراء تحقيق نزواته ولذاته الفورية، لأنه لا يعتقد في وجود شيء وراء الحياة الدنيوية، وهو على هذه الحالة كلما أشبع شهواته ازدادت جوعًا، وهو لا يعرف لماذا يعيش؟ ما يجعله يعيش في حالة من التوتر وشعور داخلي بالفراغ، ذلك هو الفراغ الديني" (غبريال، 2017، ص493)

ISSN : 2410-1818

وفي سورة المطففين بعد أن وصف الله سلوكهم وظلمهم بالتطفيف قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة المطففين، آية ٤-٥) فلو كان هذا الاعتقاد حاضرًا في وعيهم لعدل سلوكهم.

والتذكير بالموت لإيقاظ الوعي العام والوعي الذاتي وسيلة استخدمتها مدرسة العلاج النفسي الوجودي بقيادة يالوم وماي (٢٠١٥)، والذين أجروا تجربة أسموها (جماعة دورة الحياة)، وفيها يخوض المشاركون تجربة محاكية للموت، عبر مجموعات العلاج الجماعي، ويطلب من المشاركين نعي أنفسهم، وكتابة نقش أضرحتهم، وزيارة القبور، والهدف أن يعي المشاركون قيمة حياتهم.

ولكن الفرق الجوهري بين الرؤية الإسلامية وغيرها حاضر في كثير من التجارب الوجودية، ففي التجربة السابقة غاية تذكر الموت اغتنام الحياة، والوعي بقيمتها، بخلاف الغاية في خطاب الوحي الذي يرمي لربط الإنسان بالغاية النهائية من وجوده، واستحضار هذه الغاية كفيل بإصلاح الدنيا والآخرة، كما في الحديث النبوي السابق حين قال النبي صلى الله عليهم وسلم عن أولئك المستحضرين لغاية وجودهم: (أُولَئِكَ هُمُ الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ .(رواه الطبراني،ج١٢/٤١٧، حديث رقم ١٣٥٣٦).

-اتباع الهوى:

الوعي بالذات حالة تسبق ضبط الهوى أو مخالفته، فمن لم يدرك ذاته لا يستطيع أن يعي بأهوائها، وربما خلط بين هواه وبين أمر الله، وبدأ في شرعنة هواه، وتزيين السوء لنفسه، ويكون ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، إن حالة الرقابة الذاتية التي امتلأت بها سير السلف والمساءلة الشديدة لما خلف أفعالهم من نوايا ومقاصد لتعكس لنا مدى وعيهم بامتداد نظرهم إلى ما وراء السلوك ليكون خالصًا لله، متطهر من الأهواء، وهذا منهج رصين لتشكيل الوعي بالذات عبر أسلوب الرقابة، وبالتالي كلما أغرق الإنسان في اتباع هواه أصبح بمنأى عن الوعي بذاته، إذ ينصب وعيه على تحسس رغباته وإشباعها.

وفي علم النفس الحديث ما يحاكي ذلك تطبيقيًا، ويختلف عنه -كالعادة- غائيًا، ففي نظرية التنظيم الذاتي

(Self-Regulation Theory)التي طورها روي بوميستر (١٩٩٤م) أشار إلى دور الوعي الذاتي في كبح الانفعالات والسلوكيات الاندفاعية. حيث يؤكد بوميستر على أن الضبط الذاتي للسلوك يتطلب بالضرورة وجود وعي ذاتي مسبق ومراقبة مستمرة للأفعال، إذ يمثل الوعي بالذات الحجر الأساس في عملية التحكم الذاتي.

ISSN : 2410-1818

ويوضح بوميستر آلية التنظيم الذاتي من خلال نموذج دائري يعتمد على التغذية الراجعة، يمر بثلاث مراحل أساسية:

1. **مرحلة الإدراك الذاتي** :حيث يدرك الفرد سلوكه الحالي.
2. **مرحلة المقارنة** :يقيس الفرد سلوكه وفق معاييره وقيمه الشخصية.
3. **مرحلة التعديل** :يقوم الفرد بتعديل سلوكه ليتوافق مع معاييره.

وهذا المراحل الثلاث هي تفصيل تطبيقي لحالة الرقابة، التي تبدأ بالوعي للذات والواقع ومن ثم مقارنته بالمعايير الشرعية -وليست الشخصية كما في نظرية التنظيم الذاتي-، ومن ثم المقاربة بين الواقع والمأمول، وأما الهوى فهو انغماس في إدراك الحاجة إلى اللذة وآلية الإشباع، بعيدًا عن التقييم أو التعديل.

وحين نعود إلى القرآن الكريم نجد أن االله عز وجل ربط بين اتباع الهوى والغفلة وبذلك يتضح تلازمهما، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (سورة الكهف، آية ٢٨) ولئن كانت ملكة الحواس -التي ذكرت في المبحث السابق- من الاستعدادات والمقومات التي وهبها الله للإنسان تعينه على الوعي بذاته، فإن الهوى يطمس الهداية من هذه الملكة، فتصبح وبالا عليه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية، آية ٢٣)

وللهوى جانب من الإغراء إذ أنه يتوافق مع النفس البشرية ورغباتها، ولا يحتاج إلى مجاهدة أو عزيمة؛ إلا أن بمقدور الإنسان مدافعته، وعدم الاستسلام له، قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ) (سورة النازعات، آية ٤٠) وفي ذلك دلالة على أن بوسع الإنسان مجاهدته، ولكن الوعي به وتمييزه هي مرحلة تسبق المجاهدة، من أجل ذلك كان للوعي بالذات أهمية يتحصل بها دفع الهوى.

-المعتقدات الفاسدة:

رغم النزاعات الحادة بين مدارس علم النفس إلا أنها تكاد تتفق بمختلف توجهاتها على تأثير المعتقدات البارز على السلوك، بل تعد ركن رئيس في نظرة الفرد لذاته، وطريقة تعاطيه مع العالم من حوله، ففي نظرية السلوك المخطط التابعة للمدرسة السلوكية والتي طورها أجين (١٩٩١) يرى أن السلوك محكوم بثلاثة أنماط من المعتقدات: وهي المعتقدات السلوكية، ومعتقدات التحكم، والمعتقدات المعيارية، وبالتالي يكون السلوك انعكاس لأحد هذه الأنماط. وعلى نطاق المدرسة المعرفية

ISSN : 2410-1818

فإنه يرى بيك (٢٠١١) أن ثمة معتقدات رئيسة يستند إليها الفرد في تفسير الأحداث، وتؤثر بشكل مباشر في ردوده الانفعالية والسلوكية، وتكون بمثابة المرجعية التي تشكل شخصيته وتحدد استجابته.

وبناء على ذلك فإن ثمة معتقدات فاسدة تفعل فعلها في سلوك الإنسان بشكل عام، وفي وعيه بذاته بشكل خاص، إذ أنها تشوه الحقائق التي تمر عبر المدخلات، فتلتاث بها نفسه، ويقع في التخليط الذي يعميه عن حقيقة نواياه، وما تستبطنه نفسه، وضابطها كل معتقد صد صاحبه عن مراجعة ما بنفسه، أو عزز ثقته بصوابه المطلق، كان ذلك حائل دون الوعي بالذات، كالوثوقية المطلقة، أو تزكية النفس التي نهى الله عنها، أو غياب الإيمان بأهمية المراجعة والمحاسبة الدائمة، أو العناد، أو الاعتقاد أن التراجع عن الخطأ ضعف وانهزام، وغير ذلك.

-الكبر:

إذ يعتقد صاحبه بالفوقية على الناس وعلى الحقائق، ولا يقبل الاعتراف والتسليم حين يتبين له شيء مما تطويه نفسه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ.) (صحيح مسلم) وبطر الحق أي: رفضه وعدم قبوله، كما أن الكبر يلجئ صاحبه إلى التحايل وخداع نفسه، كما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٩)، والإيمان بالله من الحقائق البينة إلا أن الله عز وجل نسب في مواضع عدة أن الكبر هو ما يحول بين الكفار والتسليم لهذه الحقيقة، ولو كانوا في قرارة أنفسهم موقنين بها، قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا**﴾ (سورة النمل، آية١٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ (سورة غافر، آية٥٦) ويحيل الله عز وجل في هذه الآية إلى آفتين من آفات بني إسرائيل حالت بينهم وبين الحق، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٨٧)

وهذا ينسجم مع نظرية الذات الزائفة التي أسسها رائد المدرسة المعرفية البريطانية وينيكوت (١٩٦٠م) والتي خلص من خلالها إلى أن الإنسان قد يلجأ إلى بناء ذات زائفة تختلف عن ذاته الحقيقية، ويبالغ في تقديرها وتضخيمها حتى تتماهى مع واقعه، وحتى تحقق له المكاسب المرجوة، إلا أنها تبعده عن جوهره الحقيقي، ويعيش حالة من العمى الذاتي.

ومن انعكاسات الكبر الجدل والتبرير والذي يحمل صاحبه على التشكيك والمراء فيما يسمع ويرى ولو تبين له حقيقته، وبالتالي فإنه يجادل في الحق بعدما تبين، ويبرر سلوكه ونواياه، ويزين لنفسه الباطل، فكيف يلجأ إلى الإصلاح وهو لا يقر بالفساد، وهذا الجدل سمة في الإنسان تحتاج إلى مجاهدة

ISSN : 2410-1818

ليتسامى عليها، ويذعن للحق ولو كرهته نفسه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (سورة الكهف، آية ٥٤).

-الجهل المركب:

وفيه يبالغ الفرد في تقدير ذاته، ولا يدرك مدى جهله، وهو ما توصل له *دانينغ وكروجر* (١٩٩٩م) في دراستهما التي هدفا من خلالها إلى معرفة علاقة الجهل بالذات، والتي أجريت على مجموعة من طلاب الجامعة، واستخدما فيها عددا من الاختبارات وطلبوا من المشاركين تقييم أدائهم بعد كل اختبار، وتوصلا إلى أن الأفراد ذوي الكفاءة المنخفضة أعطوا تقديرًا مبالغًا لذواتهم، بخلاف الأفراد مرتفعي الذكاء، وبالتالي هذا يدل على عدم معرفتهم بحقيقة إمكاناتهم، والذي يدل على مستوى منخفض من الوعي بالذات.

ولعل في قوله تعالى شاهد على ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (سورة الكهف، آية ١٠٤)، فمن ظن أنه يحسن صنعا رغم ضلالته، فهذا حاجز دون مراجعة نفسه أو محاسبتها، إذ أنه يعتقد بصواب مسلكه، فلا يتعهد قلبه، ولا يراقب نواياه، رغم تقلب القلب، وما يتطلبه ذلك من وعي مستمر بأحواله، ليصلح مساره متى ما حاد عن الطريق.

-التعصب والاتباع على غير بصيرة.

والتعصب بنية واحدة وإن تعدد محتواه، سواء كان تعصبًا طائفيًا أو قبليًا أو فكريًا، فجوهر الاستشكال فيه أنه يصنع للفرد معايير يحتكم إليها تتعلق بنصرة ما يتعصب له، بعيدًا عن معايير الفرد، وذاته بما تحمله من معان وأفكار وتصورات.

ولا يخلو التطرف من أبعاد تربوية تقترن بتكوينه وتبلوره ونمائه، وآلية التعبير عنه؛ لأنه يمس مستويات الشخصية الثلاثة: العقلي، والوجداني، والسلوكي، فعلى المستوى العقلي يتسم المتطرف بضعف القدرة على التأمل والتفكير، وعلى المستوى الوجداني يتسم المتطرف بالاندفاعية وبشدة الانفعال، وعلى المستوى السلوكي يتسم المتطرف بالاندفاعية وشدة الانفعال والميل للعنف (نعيم، 1990م)

وقد ذم القرآن التبعية العمياء، وجعل اتباع الإسلام على بصيرة، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى**﴾ (سورة يوسف، آية ١٠٨)، فالتقليد على غير بصيرة يلغي ذات الفرد، ويسلبه إرادته، وبالتالي يغترب عن ذاته في سبيل اتباعه، ويتحول هذا الاتباع في صورة من صور

ISSN : 2410-1818

تقبيحه إلى حجة باطلة لا تنفع صاحبها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾ (سورة الأحزاب، آية ٦٧)

"والمراد بالسادة والكبراء: هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم، وفي هذا زجر عن التقليد شديد، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا والتحذير منه، والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله، ويقتدي به، وينصف نفسه منه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم وشدة التعصب" (الشوكاني،1414، 352/4).

والعبرة هنا بعموم اللفظ في ذم التبعية بلا بصيرة، وليس لزامًا أن تختص التبعية بالإيمان والكفر، ودلالة ذلك ما أورده ابن عبدالبر حين قال معلقًا على هذه الآيات: "وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من جهة الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجل فكفر، وقلد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملومًا على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا، وإن اختلفت الآثام فيه" (ابن عبدالبر،1994، 977/2)،

- **أسباب تجاوز المعيقات**

إن المتأمل فيما ذكر من عوائق تحول بين الفرد والوعي بذاته، يجد أن ثمة عامل مشترك بينها أنها تشترك في إبعاده عن ذاته، وعن رقابة ربه، وتصنع له معايير يحتكم إليها كالهوى والمصالح الشخصية، والثقافة المحيطة وغيرها، في حين أن وسائل القرآن الكريم تشترك في توثيق علاقة الفرد بربه ومنها يستمد رقابة على ذاته، إنها وسائل تعين على ما يسمى في علم النفس بمصطلح اليقظة الذهنية (Mindfulness) والتي تحاول تقوية حضور الفرد في اللحظة الحالية غير أن الغاية هي زيادة التركيز، والإتصال بالذات، بخلاف المدرسة الإسلامية التي تهدف من الحضور شدة الاتصال بالله، كالخشوع في الصلاة والذي هو حضور حالي لا يشوبه تشتت، مرتبط بالخالق، ولا يقف عند غاية أرضية، وإذا كان الوعي بالذات يتطلب صفاءً في التركيز، ليتأمل الفرد في دواخله، وما وراء أفعاله من نوايا، فإن هذه الوسائل تعين على تحقيق هذه البيئة المحفزة للوعي الذاتي.

-الذكر:

لفظة الذكر مضادة للنسيان والغفلة، وهما العائقان اللذان ذكرا في المبحث السابق، وقد بين الله تعالى فاعليته في الوقاء من الغفلة حين قال تعالى: (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والاصال ولا تكن من الغافلين)، والآيات التي اقترن فيها الذكر بالكثرة كثيرة

ISSN : 2410-1818

جدا، وذلك أن الإنسان يلجأ في وضعه الطبيعي إلى الغفلة كما سبق بيانه، والذكر يرتقي به إلى اليقظة التي تبقيه حاضرًا لما يتلقاه وما يلقيه ولما بنفسه.

إن حالة الجهل بالذات هي حالة أشبه بالظلام المعنوي الذي لا تكاد ترى فيه نفسك، وتبصر عيوبها وعلاجها بذكر الله كثيرا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾﴾ (سورة الأحزاب، آية ٤١-٤٣)، فذكر الله نور مطلق ونور مخصوص لتبصرة الإنسان بنفسه، من أجل ذلك كانت غاية من غايات الشيطان أن يخرج الإنسان من النورانية إلى الظلمات، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٥٧) وإخراجهم من النور إلى الظلمات بوسيلة غياب ذكر الله، قال تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ (سورة المجادلة، آية ١٩)، فلم يتخطفهم الشيطان إلا بعدما أنساهم ذكر الله، فنسوا أنفسهم، فسهل انقيادهم.

-التفكر

التفكر وسيلة من الوسائل الموصلة لغايات عدة إحداها حالة الوعي الذاتي، إنه تأمل وتقليب للنظر في آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، والقرآن الكريم امتلأ بالآيات الحاثة على التفكر والتدبر والتبصر والتعقل، تلكم الأفعال العقلية التي لها وظائف عدة ومنها التأمل في النفس كمرحلة تحدد الخلل وتسبق التزكية، ولقد كانت أول موعظة في الإسلام حاثة على التفكر، قال تعالى: ﴿**قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ**﴾ (سورة سبأ، آية ٤٦)، وللزمخشري تفسير لطيف لهذه الآية، يبين فيه دور التفكر الفردي أو الثنائي في الوقاية من التعصب الذي هو عائق من عوائق الوعي الذاتي، قال رحمه الله: "والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب"

(الزمخشري، ١٩٨٧، 590/٣).

-محاسبة النفس

تكاد تذهب محاسبة النفس بلب الوعي الذاتي في التصور الإسلامي، إذ أنها عين الوعي ولبه، وقد ذكرت مدارس علم النفس مصطلحات تطبيقية نحو النقد الذاتي البناء -Constructive Self) (Criticism ورائدته نيف (٢٠٠٣م) التي تناولت هذا المفهوم بالبحث والإجراءات التطبيقية وارتباطه

ISSN : 2410-1818

الدال بالوعي الذاتي، غير أن هذا المفهوم وما يشاكله منصب على المشاعر والسلوك الظاهر في ضوء المعايير الذاتية والمجتمعية، بخلاف مفهوم محاسبة النفس الذي يتجاوز السلوك إلى النوايا والمعتقدات التي تقف خلفه، إنها محاسبة تمتد إلى الجذور المكونة للسلوك، وبذلك يكون التغيير فيها أعمق وأقوم، كما أن المعايير التي تحتكم إليها معايير ربانية يحاسب الفرد نفسه في ضوئها.

-الرقابة الإلهية:

تعمل رقابة الله بمثابة رقيب خارج عن الذات مطلع عليها، وفي هذه الرقابة موضوعية أكبر، لا تشوبها تحيزات النفس البشرية، كما أنها رقابة لا يحدها مكان أو زمان أو طوية، فكل رقابة خارجة عن الذات يمكن التحايل عليها، بخلاف رقابة الله تعالى التي يفترض أن تبقي صاحبها في حالة من اليقظة الدائمة بقدر يقينه بها، وهذه الوسيلة لا تتأتى بهذا الوضوح والمعيارية والحضور المكثف في القرآن الكريم إلا في المدرسة الإسلامية.

إن رقابة الله عز وجل -فضلاً عن سياقها العقدي- لتمتاز بالشمولية حيال الوعي الذاتي، إذ أنها تحفز صاحبها لمراقبة الخواطر والدوافع والمقاصد التي تسبق السلوك، وذلك لعلم الله بها، وتمتد أثناء السلوك، لتذكر بالمسؤولية، والاستمرار على حسن المقصد إن كان السلوك محمودًا، وتواصل دورها بعد السلوك، طردًا للاغترار بالنفس، والإعجاب بالفعل على نطاق الأعمال المحمودة، أو حفزًا للتوبة، والمنع من التمادي، وبذلك يحاط سلوك الإنسان من كل جوانبه، بكافة مظاهره المادية أو المعنوية الخفية.

المبحث الرابع: انعكاسات الوعي الذاتي على الإنسان

يُعدّ الوعي بالذات من أعلى مراتب الإدراك البشري، فهو المدخل الرئيس للتزكية، ومنطلق التقويم الأخلاقي والسلوكي. وإذا كان الإنسان في التصور الإسلامي مكلّفًا ومستخلفًا، فإنّ وعيه بذاته يُعدّ من أعظم ما يُعينه على القيام بوظيفته في الحياة، وضبط مساره نحو غايته.

فالوعي الذاتي ليس ترفًا ذهنيًّا ، بل هو قيمة تكوينية صلبة في سياق التكليف، إذ يُمكّن الإنسان من استبصار دوافعه ونواياه، وفهم مشاعره وسلوكياته، ومراجعة مواقفه وأفعاله في ضوء مرجعية متعالية على الذات، وهي المرجعية الإلهية .ومن هنا يتجاوز الوعي الذاتي المفهوم النفسي الغربي المحدود إلى أفق روحي وأخلاقي أوسع في المنظور الإسلامي.

وسيتناول هذا المبحث أبرز الانعكاسات التي يُحدثها الوعي بالذات في حياة الإنسان، بدءًا بالغاية الأسمى وهي معرفة الله عز وجل مرورًا بتقويم النية، والتزكية الأخلاقية، ومعرفة المزالق

ISSN : 2410-1818

النفسية والشيطانية، وصولًا إلى تعميق الشعور بالمسؤولية، وتعزيز الصلة بالله، بما يجعل الوعي الذاتي لبنة أساسية في بناء الإنسان الصالح. وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: معرفة الله

إحدى محصلات الوعي بالذات معرفة الإنسان لطبيعته البشرية، وإدراكه لأوجه النقص في كينونته، حيث يقوده وعيه لإدراك استحالة الكمال، رغم نزوعه له، ورغبته في بلوغه، وتعلقه بخصال الكمال وقيم الحق والخير، وهذا يقوده إلى معرفة ربه المتحقق بالجمال والكمال، فكل نقص بشري يقابله كمال إلهي مطلق.

وبالمقابل فإن قيم الخير التي فطر الله البشر عليها، وعلى تقدير من امتثلها؛ هي انعكاس لصفات الخالق جل جلاله، فالكريم من البشر، والحليم منهم، وكذلك الرحيم والمتسامح، هم متخلقون تخلقاً يشوبه النقص البشري، ورغم ذلك تنزع النفوس لتقدير وإجلال أولئك المتخلقين، فكيف بمصدر الكرم والرحمة والعفو والقدرة وسائر صفات الكمال.

وبالتالي فإن النقص البشري، والتوق إلى الكمال والمطلق كلاهما ينسجمان مع الفطرة البشرية التي تسترشد بهذه الدلائل على ميثاق العبودية التي أخذه الله على ذرية آدم عليه السلام، حين قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية ١٧٢)

بينما تحتفي بعض الأطروحات الفلسفية بتحرير الذات من المرجعيات المتجاوزة، يُعيد الإسلام صياغة مفهوم الحرية في إطار العبودية لله، ويُقرّر أن غاية الوعي بالذات ليست إثبات الاستقلال، بل اكتشاف الافتقار .فكلما ازداد الإنسان وعيًا بذاته، أدرك أنه لا قيام لها إلا بالله، ولا كمال لها إلا بالاتصال بالمطلق، وهذا هو جوهر التوحيد.

في الفلسفة الوجودية، كما عند جان بول سارتر، تُفهم الذات بوصفها كائنًا حرًّا يُلقى به في هذا الوجود عبثًا، ليصنع معناه بنفسه، دون أي غاية أو معيار مفروض مسبقًا. وبهذا يصبح وعي الإنسان لذاته وسيلة لتأكيد استقلاله وتفرده، لا للبحث عن مرجعية أعلى أو غاية متجاوزة (سارتر، ١٩٦٤م) أما في علم النفس الإنساني، كما عند كارل روجرز، فإن تحقيق الذات يُعدّ الغاية العليا، حيث يُعرّف النجاح النفسي بأنه التوافق الداخلي مع الذات، لا مع أي نظام أخلاقي أو إلهي. (روجرز، ٢٠٠٩م).

ISSN : 2410-1818

ثانياً: تقويم النية

تشكل النية مركزية جوهرية في الخطاب الإسلامي، فهي الخطوة اللازمة والسابقة لكل عمل، وبدونها يحيد العمل عن غايته، بل ربما ينقلب على صاحبه فيكون وبالًا عليه، من أجل ذلك كانت النية بوابة قبول العمل ولبه ووزنه عند الله تعالى، غير أن ضبط النية ومراقبتها ليس بالأمر الهين، إنه عمل دؤوب مستمر يتطلب مجاهدة قبل العمل لضبط وجهته، وأثناء العمل حتى لا تتغير مقاصده، وبعد العمل منعًا لإفساده بالعجب والغرور، وهذا لا يتأتى إلا بوعي ذاتي عالٍ، فإذا تمرس الإنسان عليه واعتاده، كان من ثماره عدد من القدرات تعينه على ضبط نيته وتقويمها من خلال ما يلي:

- القدرة على الاستبصار للمقصد الحقيقي خلف عمله، فللنفس تقلبات وتدليس وإيهام، يكون بذلك ظاهر القصد يختلف عن باطنه، وكلما كان الإنسان على بصيرة من نفسه ووعي بها، كان أجدر في تمحيص نواياه سعيًا بعد ذلك لتقويمها.
- القدرة على إدراك وتصفية ما يطرأ على النية من صوارف ومقاصد وآفات تحيل العمل عن غايته التي ابتدأ بها، فلا يقتصر ضبط النية قبل العمل، فلربما طرأ العارض أثناءه، ولا يدرك الإنسان هذا التغير إلا بوعي ذاتي مرهف.
- القدرة على تثبيت النية نحو غايتها، فهو إن استطاع اكتشاف ومعالجة ما طرأ على نيته، فهو بحاجة إلى تثبيت النية نحو مقصدها.
- القدرة على محاسبة النفس بعد العمل، وإدراك الفرق الخفي بين شعور الرضا الذي يعقب العمل، وشعور الاغترار أو العجب أو الاتكال، فلربما فسر هذا بهذا وبينهما بون شاسع يغير مسار العمل.
- القدرة على اكتشاف الفجوة بين القول والعمل، وبين الظاهر والباطن، فثمة أعمال يعتادها الإنسان حتى تدخل في دائرة الإلف والغفلة عن مقاصدها، وهي بحاجة إلى التنقيب الدائم عبر الوعي بالذات.
- القدرة على تجاوز التبريرات التي يخلقها الإنسان لنفسه، فكل سلوك بشري ينطوي على اعتقاد ضمني، وتبرير يسوغه، فما مدى صدق هذه المبررات؟ وما مدى اقترابها من الحق؟ وما مدى مقاربتها مع النص الشرعي؟ كل هذه الموازنات بحاجة إلى وعي ذاتي يمحص حقيقتها.

ثالثاً: التزكية الأخلاقية

ذكر الله عز وجل أن من سنن التغيير على كافة المستويات هو التغيير النفسي، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد، آية ١١) وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، آية ٥٣) وبالتالي فإن التغيير النفسي هو جوهر التغيير الخارجي، على النطاق الحسن أو السيء.

ISSN : 2410-1818

غير أن هذا التغيير النفسي مسبوق بإدراك للذات، ومعرفة عيوبها وسبل تغييرها، كما أن النفس قد تتبدل لحال أسوأ، أو تضمر نوايا غير محمودة، ولا يدرك الفرد هذا التغير ما لم يكن لديه وعي بذاته، ومراقبة لها تمكنه من إدراك تحولها، فتزكية النفس، وصقل الأخلاق، هو عمل جوهره نفسي، وهو مقدمة لسنة التغيير التي ذكرها الله عز وجل، ويسبق ذلك العمل وعي بالذات مستمر ودائب وفاحص لبواطن النفس.

ومن هنا، فإن الوعي بالذات لا يُختزل في بُعد معرفي داخلي فحسب، بل هو وظيفة تربوية مركّبة تُسهم في بناء إنسان متوازن، يُدرك ذاته، ويُزكّيها، ويستبصر بنواقصها، ويجاهدها في ضوء معيار الحق، لا في ضوء الميول الذاتية أو القيم المتغيرة.وعليه، فإن تفعيل مفهوم الوعي بالذات في سياقات التربية الإسلامية يُعد من المسارات الحيوية لإعادة الاعتبار لفكرة التزكية بوصفها ممارسة حيوية، لا شعارًا تجميليًا، ولتأكيد مركزية البُعد الروحي والأخلاقي في البناء الإنساني.

رابعاً: أثره على الأعمال القلبية

للقلب مكانة مركزية في الخطاب التربوي الإسلامي، إذ هو محل التزكية، وأيقونة الفلاح لمن عني بطهارته، قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ • إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍۭ سَلِيمٍ﴾ (سورة الشعراء، آية ٨٨-٨٩)، بل إن الله تعالى منع طهارة القلب عمن عاقبهم بإعراضهم فقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ (سورة المائدة، آية ٤١).

والوعي بالذات يزيد من حساسية الفرد تجاه قلبه، وكلما ازداد الإنسان وعيًا بتقلّباته، وتفحّص مشاعره، أدرك كم هو معرّض للغفلة، وللرياء، وللغرور، وللشهوة المبطّنة. هذا الإدراك يرقّق القلب، ويزيد خشوعه وتواضعه، ويزرع فيه الإخلاص والخوف من الله، والرجاء في رحمته. وهذه الرقة والتواضع واستشعار الضعف أحد الركائز القلبية التي تري الفرد حقيقة نفسه، ومدى افتقاره، فتنعكس عليه بطلب العون الدائم من الله، وأنه سبيل الخلاص الوحيد.

ولئن تمثلت مرتبة الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه فإن هذا الإحساس الحيّ بحضور الله لا يولد إلا من قلب استيقظ بذاته على ذاته، فرأى ضعفه وعظمة مولاه، وراقب نواياه وخطراته، وسعى لتطهيرها، فنجد أن للوعي الداخلي حضور مهم في الترقي في سلم الإيمان.

كما أن الوعي بالذات يعين الفرد على خلق حالة من التوازن في طبيعة علاقته بربه، توازن بين الخوف والرجاء، خوف لا يبلغه القنوط، ورجاء لا يسوغ له المعاصي، وهذا التوازن ليس غاية يبلغها الإنسان ثم يتجاوزها ويركن إلى ما بلغه فيها، بل هي رقابة مستمرة تبقي على هذا الإتزان، ومعايرة

ISSN : 2410-1818

بين هذه الحالة القلبية وانعكاسها على السلوك، ليعيد في كل مرة تقويمها وتقييمها، إذ أن بداية الانحراف تنشأ من ميل يسير عن الهدف، وتزداد هوته بقدر غفلة الإنسان عن إدراك هذا الانحراف، وكلما ازدادت هذه الهوة كان التقويم أشد، والعودة إلى حالة الصفاء الأول أصعب.

وعلى نطاق مساوئ القلوب، فإن الغفلة عن إدراك الكبر الخفي في القلب قد يودي بصاحبه إلى النار فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) (مسلم، ٩١، ١٣٧٤م) فكيف يتأتى إدراك مثقال الذرة لمن لا وعي له بمقاصده ونواياه، لا سيما تلك التي تتلبس بلباس الخير في ظاهرها، وقس على ذلك بقية المساوئ كالحسد والرياء والعجب وحب الجاه والغرور وغيرها.

خامسًا: إدراك مداخل الشيطان

يُعدّ الوعي الذاتي أحد أبرز الآليات التي تعين الإنسان على إدراك المؤثرات الخفية في توجهاته وسلوكه، ومن أهمها مداخل الشيطان إلى النفس البشرية. فالشيطان، بحسب التصور القرآني، لا يملك سلطانًا مباشرًا على الإنسان، وإنما يتسلل إلى أعماقه من خلال الوسوسة والتزيين، كما قال تعالى:﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ (سورة النحل، آية ٩٩)

ولأن وساوس الشيطان خفية وتتستر خلف نوازع النفس، فإن **الوعي الذاتي** يُعدّ الوسيلة الأنجع لكشف تلك المداخل وتعطيل فاعليتها. كما ذكر ابن القيم: بأن الشيطان يدخل على النفس من باب الجهل والغفلة، ويسلط عليها الهوى، فحينئذٍ يتمكن من قيادتها (ابن القيم، ١٩٩١م)

إلا أن هذا الوسواس يكون على هيئة خاطر، ومصدر الخاطر قد يكون إلهامًا إلهيًا وقد يكون من حديث النفس أو وسوسة الشيطان، وهنا يبرز دور الرقابة الذاتية، والتمرس عليها في التمييز بين هذه الخواطر، كما قال الغزالي: أن الخاطر قد يكون من الملك، وقد يكون من الشيطان، ولا يُدرَك ذلك إلا من صفا باطنه وكثرت مجاهداته (الغزالي،٢٠٠٥م) وبالتالي فإن فحص الخواطر ولو كان ظاهرها حسن هو سبيل المؤمن لتمييز وسوسة الشيطان، كما ذكر ابن الجوزي: فليفحص المؤمن خواطره فربما كانت طلائع جند إبليس (ابن الجوزي، ٢٠٠٤م)

ولم يحظ الخطاب التربوي النفسي الغربي بمادة علمية تتناول تأثير الشيطان النفسي، وأساليبه الإغوائية، وطرق مقاومته، وذلك لاختلاف المرجعيات، بخلاف المدرسة الإسلامية، وغاية ما يسفر عنه ذلكم الخطاب هو القدرة العالية على مراقبة الذات بمعزل عن مصدر هذه الخواطر، والهدف المنشود

ISSN : 2410-1818

هو ضبط السلوك، كما يبين مارين (٢٠١١) بقوله: الوعي الذاتي المعمّق يمكن الفرد من مراقبة الدوافع الدقيقة التي تحرّك سلوكه، ومنه يتمكن من مقاومة المؤثرات الخارجية والداخلية المنحرفة.

وقد نص الله عز وجل على طبيعة العلاقة بين البشر والشيطان أنها علاقة عداوة بامتياز، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (سورة فاطر، آية ٦)، وأسلوب هذا العدو أسلوب نفسي صرف، عبر وسوسة تملي على الإنسان ما يفسد به دينه، وما يصرفه عن الخير، وبما أن قلة الوعي بالذات تجعل الفرد منصرف الانتباه للظواهر الخارجية، غافلاً عن البواعث الداخلية، فإن مقاومة الشيطان لا تتحصل إلا بوعي ذاتي عال، يمكن الفرد من تمييز هذه الوساوس، والنزغات، من أجل ذلك كان للوعي الذاتي انعكاس هام في اكتساب الفرد لأداة مهمة من أدوات معرفة مداخل الشيطان، بالإضافة إلى غيرها من الوصايا القرآنية والنبوية .

سادسًا: الاقتراب من الفطرة

تعد الفطرة النواة التي أودعها الله في خلقه ليعرفوه بها، وليميزوا من خلالها الخير والشر، ويميلوا عبرها إلى القيم المطلقة الثابتة التي يولد البشر وهي في أصلهم، فلا تجد من البشر الأسوياء باختلاف دياناتهم وأعراقهم من يقر بأن الظلم أصلح من العدل، أو الكذب خير من الصدق، غير أن هذه الفطرة يعتريها من التشوه والتحريف ما يؤدي إلى الابتعاد عن نقاء هذا المشترك البشري، ومن خلال التأمل والوعي الذاتي يقارب الإنسان بين حقيقة النداء الفطري وبين التغير الذي طرأ عليه.

إن المتأمل في مجريات العصر الحديث ، وما طرأ عليه من تشوه فطري، طال حتى جنس البشر، وشرع الشذوذ فيه، وامتهن كرامة الإنسان، إلا أنك لتجد من يقاوم هذا التشوه باختلاف المرجعيات الدينية والاجتماعية، فالذي وحدهم هو نداء الفطرة المشترك، وكما قال ابن القيم (٢٠٠٤م): أن الفطرة إذا تُركت على حالها كانت مهيّأة لقبول الحق، ولكن تُغيرها العوائد والشهوات.

ويأخذ طه عبدالرحمن (٢٠٠٧م) مفهوم العلاقة بين الوعي الذاتي والفطرة إلى بُعد أكثر عمقًا، حيث عني في مشروعه الفكري بتجلية مفهوم الائتمان بشكل عام، والائتمان الأخلاقي على وجه الخصوص، ويريد به :تحمُّل الإنسان أمانة التكليف التي حمّله الله إياها، عبر ممارسته لحرّيته ومسؤوليته الأخلاقية على وجه يتّسق مع فطرته ويستند إلى الهدي الإلهي، فيرى أن الوعي الذاتي ليس مجرد مراقبة عقلية للنفس، بل هو نمط من "الاستبصار الأخلاقي" الذي يفتح للإنسان باب التزكية والرجوع إلى أصله الفطري. فالإنسان لا يُزكّي نفسه إلا إذا وعاها، ووقف على نزعاتها ودوافعها وأهوائها، ثم انقاد بها إلى ميزان الحق.كما يرتبط الوعي الذاتي بمفهوم الائتمان الأخلاقي، وهو المفهوم المحوري في مشروعه، إذ لا يمكن للإنسان أن يفي بهذا الائتمان ما لم يكن عارفًا بنفسه، مدركًا لمواضع ضعفها وقوتها ، وأبعاد مسؤولياته.

ISSN : 2410-1818

الخاتمة

تناول هذا البحث موضوعًا جوهريًا في البنية النفسية والروحية للإنسان من المنظور القرآني، وهو الوعي الذاتي، بوصفه مفتاحًا للتزكية، ومدخلًا للفهم الأخلاقي، وأداة لتحقيق الاستقامة السلوكية. وقد سعى البحث إلى بناء تصور متكامل لمفهوم الوعي بالذات كما يصوره القرآن الكريم، من خلال المفاهيم القرآنية ذات الصلة، والسياقات التي وردت فيها، واستنباط الأبعاد النفسية والمعرفية والتربوية لهذا المفهوم.

وقد أبرز البحث أن القرآن الكريم لا يقدّم الوعي الذاتي كأداة معرفية فحسب، بل كبنية وجودية لها جذورها في الفطرة، وامتداداتها في السلوك، وآثارها في المصير. كما بيّن أن تحقق الوعي بالذات مشروط بمجموعة من المقدمات القرآنية، كالتفكر، والتدبر، والتزكية، وأن غيابه يرتبط بجملة من العوائق التي يعرضها القرآن، كالغفلة، والهوى، والكبر، والانصياع للشيطان.

وفي ضوء هذه المعالجة القرآنية، اتضح أن الوعي الذاتي يُعدّ من الأساسات المركزية في البناء الإنساني في التصور الإسلامي، ليس فقط لأنه يُصلح علاقة الإنسان بنفسه، بل لأنه يُمهّد لعلاقته بربه، ويؤسس لقيام مسؤولياته الأخلاقية والاجتماعية على وعي داخلي عميق.

وبذلك يأمل الباحث أن يساهم هذا البحث في تقديم نموذج قرآني أولي للوعي الذاتي، يفتح آفاقًا علمية وتربوية متعددة للباحثين في مجالات النفس والتربية والدراسات القرآنية، ويفتح المجال للباحثين في إكمال بلورته، وسد فجواته، والله من وراء القصد، وهو أعلم بالنية.

النتائج

١. أظهر التحليل أن الوعي الذاتي في القرآن الكريم هو وظيفة فطرية متجذرة في التكوين الإنساني، تتجلى من خلال مفاهيم قرآنية محورية كالمحاسبة، التفكر، التزكية، النية، والبصيرة.

٢. يتجاوز القرآن الطرح النفسي المعاصر في تعريف الوعي بالذات، ليؤسّسه بوصفه بنية فطرية-أخلاقية، تُمكّن الإنسان من معرفة نفسه وربه ومآله.

٣. تميز الخطاب القرآني في تناول مفهوم الوعي الذاتي بعدد من المميزات تجاوز بها قصور علم النفس الحديث ومنها: الموضوعية، والشمولية، والثبات، ووضوح الغاية.

٤. أوضح البحث أن القرآن يُمهّد للوعي الذاتي عبر منظومة من الاستعدادات الفطرية والمعرفية، مثل:

ISSN : 2410-1818

قابلية النفس للمحاسبة. والقدرة على التفكر والتدبر.وحضور الضمير الأخلاقي المربوط بالوحي. والميل الفطري نحو الخير والحق.

٥. بيّن البحث أن أبرز معوّقات الوعي الذاتي في القرآن الكريم تنقسم إلى داخلية :كالغفلة، والهوى، والجهل، والكبر وخارجية :كوسوسة الشيطان، وضغط البيئة، والاتباع الأعمى للتقاليد.

٦-هيأ الله تعالى للإنسان وسائل تعينه على تجاوز معوقات وعيه بذاته ومنها: الذكر، والتفكر، ومحاسبة النفس، واستحضار الرقابة الإلهية.

٧- تتجلى ثمار الوعي الذاتي على الفرد المؤمن بعدد من الانعكاسات ومن أبرزها: معرفة الله، والاقتراب من الفطرة، وإدراك مداخل الشيطان.

٨- للأعمال القلبية مركزية رئيسة في الخطاب القرآني، ويساهم الوعي الذاتي في تحقيقها عبر تمكين الفرد من إدراك حقيقة نيته ومقاصده، ومساوئ قلبه كالعجب والرياء.

التوصيات

1. توصي الدراسة بتكثيف الجهود البحثية والتربوية لإعادة إبراز مفهوم الوعي الذاتي في القرآن الكريم بوصفه بنية أخلاقية ومعرفية وروحية، تختلف في جوهرها عن المفاهيم النفسية الغربية المحدودة بطبيعتها المادية أو الفردية.
2. إدراج مفهوم الوعي بالذات، كما ورد في القرآن الكريم، في برامج إعداد المعلمين والمناهج التربوية، باعتباره مفتاحًا لترسيخ المعنى والسلوك القويم في شخصية المتعلم.
3. الدعوة إلى بناء مناهج تأصيلية تهدف إلى تنمية مهارات التفكر والتدبر والمحاسبة الذاتية في ضوء الهدي القرآني، لا سيما في المراحل التعليمية المبكرة.
4. العمل على تطوير برامج إرشادية وتربوية تستثمر الوعي بالذات في تنمية الأخلاق، وتقويم النية، وتقوية الصلة بالله، مع التأكيد على وظيفته في التزكية وبناء الإنسان المتكامل.
5. اقتراح إدراج مفاهيم مثل الهوى والكبر والإعراض كعناصر تحليلية في تقييم المشكلات النفسية والسلوكية، ضمن النماذج التربوية الإسلامية.

ISSN : 2410-1818

المقترحات:

يقترح الباحث بعض الموضوعات المشتقة من الدراسة، والتي تتوسع في دراسة جزئيات فرعية من الدراسة.

١-دعوة الباحثين والمتخصصين في علوم النفس والإرشاد إلى دراسة المعوّقات القرآنية للوعي الذاتي كالهوى، الغفلة، الشيطان..، ومقارنتها بالمعوّقات النفسية الحديثة، للوصول إلى نماذج علاجية متكاملة.

٢-فاعلية برنامج تربوي إرشادي مستند إلى المفاهيم القرآنية في تنمية الوعي بالذات لدى عينة من طلاب الجامعة.

٣-بناء مقياس سايكومتري لقياس الوعي الذاتي وفق مضامين التربية الإسلامية.

٤-بنية الوعي الذاتي في السنة النبوية.

٥- دور الوعي الذاتي في بناء الرقابة الأخلاقية في ضوء القرآن الكريم.

٦-دراسة مقارنة بين التصور القرآني والتصورات النفسية المعاصرة لمفهوم الوعي الذاتي.

ISSN : 2410-1818

قائمة المراجع

المراجع العربية

ابن الجوزي (٢٠٠٤م) .صيد الخاطر .بيروت :دار ابن حزم.

-ابن القيم ، محمد بن أبي بكر (١٩٩١م) .إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان بيروت :دار المعرفة.

- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر (٢٠٠٤م). دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، (تحقيق: عبدالرحمن قائد)، الرياض: دار عالم الفوائد

- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر (١٤١٠هـ). تفسير القرآن الكريم، بيروت: دار الهلال.

-ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد(١٩٩٤م). جامع بيان العلم وفضله، المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي

-ابن ماجه، أبو عبدالله محمد القزويني(١٩٥٢م). سنن ابن ماجه، (تحقيق: محمد عبدالباقي)، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

-ابن منظور، محمد بن مكرم(٢٠٠٣م). لسان العرب، بيروت: دار صادر

-أحمد، عبير، متولي، عوض سيد(٢٠١٧م). من أسرار النفس البشرية في ضوء البلاغة القرآنية، جامعة الأزهر: كلية اللغة العربية، ج٢، ص ص ٩٤٣ - ١٠٧٦.

-أحمد، عثمان فضل السيد(٢٠١٩م). مفهوم الطمأنينة في ضوء بعض النظريات النفسية والقرآن الكريم، جامعة الخرطوم: كلية الآداب، ع١١، ص ص٧٣ - ١٠٦.

-باومان، زيجمونت(٢٠١٦م). الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، (ترجمة: سعد البازعي وبثينة الإبراهيم)، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة.

-براون، جهاد هاشم(٢٠١٣م). إشكالية الاختزالية في فلسفة العقل وتبعاتها على الإيمان بالله ومبدأ النفس، أبو ظبي: مؤسسة طابة.

-البساطي، عواطف أمين يوسف(٢٠١١م). السكينة في القرآن الكريم دراسة موضوعية، جامعة عين شمس: كلية التربية، ع ١٣٣، ص ص ١٦٦ - ٢٠٣.

-توماس كون(٢٠١٧م). بنية الثورات العلمية، (ترجمة: شوقي جلال)، القاهرة: دار التنوير للطباعة والنشر.

-الجرجاني، علي بن محمد الشريف(١٤٠٣هـ). التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية.

-جولمان، دانييل(٢٠٠٠م). الذكاء العاطفي، (ترجمة: ليلى الجبالي ومحمد يونس)، الكويت: عالم المعرفة.

-الخطيب، شريف الشيخ صالح أحمد(٢٠٠٤م). السنن الإلهية في الحياة الإنسانية أثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، عمان: الدار العثمانية.

ISSN : 2410-1818

-الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن التيمي(١٤٢٠هـ). مفاتيح الغيب، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
-روجرز، كارل(٢٠٠٩م). أن تصير إنسانًا، (ترجمة: أسامة القفاش)، القاهرة: مكتبة دار الكلمة.
-الزغلول، عبدالرحمن وزقزوق، سلوى(٢٠٠٧م). علم النفس التربوي، عمان: دار الفكر.
-الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن أحمد(١٩٨٧م). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (تحقيق: مصطفى أحمد)، القاهرة: دار الريان للتراث.
-الزيد، عبدالرحمن بن حسن(٢٠١٤م). مفهوم الوعي بالذات في التربية الإسلامية، الرياض: مكتبة الرشد.
-سارتر، جان بول(١٩٦٤م). الوجودية مذهب إنساني، (ترجمة: عبدالمنعم الحفني)، القاهرة: الدار المصرية للطبع والنشر والتوزيع.
-ساكو، زهير(٢٠٢١م). الوعي بين النزعة الاختزالية والشرط الانبثاقي للذات، مقالة مسترجعة من مجلة الحكمة https://hekmah.org
-السعدي، عبدالرحمن بن ناصر(٢٠٠٣م). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الرياض: مكتبة العبيكان.
-الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله(١٤١٤هـ). فتح القدير، دمشق: دار ابن كثير.
-عبدالرحمن، طه (٢٠٠٠م).سؤال الأخلاق ، بيروت: المركز الثقافي العربي.
-عبدالرحمن، طه (٢٠٠٧م).روح الدين، بيروت: المركز الثقافي العربي.
-غبريال، طلعت منصور وآخرون(٢٠١٧م)، الخصائص السيكومترية لمقياس الفراغ الوجودي، جامعة عين شمس: مجلة الإرشاد النفسي، ع٥٠، ص ص ٤٨٧ - ٥١٣.
-الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(٢٠٠٥م). إحياء علوم الدين، بيروت: دار الكتب العلمية.
الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب(١٩٩٤م). المعجم الكبير، (تحقيق: حمدي عبدالمجيد)، القاهرة: مكتبة ابن تيمية.
-الطبري، أبو جعفر(١٤٢٠هـ). تفسير الطبري، (تحقيق: أحمد شاكر)، بيروت: مؤسسة الرسالة.
-الطيار، مساعد بن سليمان(١٤٣٩هـ). مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر،(ط.٤)، جدة: دار ابن الجوزي.
-فرانكل، فيكتور(٢٠١٧م). الإنسان والبحث عن المعنى، (ترجمة: طلعت منصور)، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
-ماي، رولو، ويالوم، ارفين(٢٠١٥م). مدخل إلى العلاج الوجودي، (ترجمة: عادل مصطفى)، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

ISSN : 2410-1818

-المسيري، عبدالوهاب(٢٠٠٢م). الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان،(ط.٤)، دمشق: دار الفكر.
-محفوظ، سهير أنور(٢٠٠١م). بنية الوعي بالذات: دراسة تحليلية سيكومترية، مجلة كلية التربية، ع٢٥، ج٣، ص ص ١٥١ - ١٨١.
مجمع اللغة العربية(٢٠٠٤م). المعجم الوسيط، (ط.٤)، القاهرة: دار الدعوة.
نجاتي، محمد عثمان(١٩٩٣م). القرآن وعلم النفس،(ط.٨)، القاهرة: دار الشروق.
-النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري(١٣٧٤هـ).صحيح مسلم، (تحقيق: محمد عبدالباقي)، دمشق: دار إحياء الكتب العربية.

English References

Abeyta, A. A., & Routledge, C. (2018). The need for meaning and religiosity: An individual differences approach to assessing existential needs and the relation with religious commitment, beliefs, and experiences. Personality and Individual Differences, 123, 6–13.

Ajzen, I. (1991). The theory of planned behavior. Organizational Behavior and Human Decision Processes, 50.

Baumeister, R. F., Heatherton, T. F., & Tice, D. M. (1994). Losing control: How and why people fail at self-regulation. Academic Press.

Beck, J. S. (2011). Cognitive behavior therapy: Basics and beyond (2nd ed.). Guilford Press.

Corey, G. (2017). Theory and Practice of Counseling and Psychotherapy (10th ed.). Cengage Learning.

Dunning, D., & Kruger, J. (1999). Unskilled and unaware of it: How difficulties in recognizing one's own incompetence lead to inflated self-assessments. Journal of Personality and Social Psychology, 77(6), 1121–1134.

Duval, S., & Wicklund, R. A. (1972). A Theory of Objective Self-Awareness. New York: Academic Press.

Engel, G. L. (1977). The need for a new medical model: A challenge for biomedicine. Science, 196(4286), 129–136.

Goleman, D. (1995). Emotional Intelligence: Why it can matter more than IQ. New York: Bantam Books.

Killingsworth, M. A., & Gilbert, D. T. (2010). A wandering mind is an unhappy mind. Science, 330(6006), 932.

ISSN : 2410-1818

Morin, A. (2011). Self-awareness part 1: Definition, measures, effects, functions, and antecedents. Social and Personality Psychology Compass, 5(10), 807–823.

Neff, K. D. (2003). Self-compassion: An alternative conceptualization of a healthy attitude toward oneself. Self and Identity, 2(2), 85–101.

Seligman, M. E. P. (2002). Authentic happiness: Using the new positive psychology to realize your potential for lasting fulfillment. Free Press.

Steger, M. F., & Frazier, P. (2005). Meaning in Life: One Link in the Chain From Religiousness to Well-Being. Journal of Counseling Psychology, 52(4), 574–582.

Winnicott, D. W. (1960). Ego distortion in terms of true and false self. In D. W. Winnicott, The maturational processes and the facilitating environment (pp. 140–152). London: Hogarth Press.

ISSN : 2410-1818

مجلـــة الأندلـــس للعلـــوم الإنسانيـــة والاجتماعيـــة
مجلـــة دوليـــة شهـريـــة علميـــة محكمـــة
الترقيـــم الدولي الإلكتروني : ISSN : 2410- 521X
الترقيـــم الدولـــي الورقـــي :ISSN :2410- 1818
البريد الإلكتروني : journal@andalusuniv.net

المجلـــة مفهرســـة فـــي المواقـــع الآتيـــة :

العام	2020	2021	2022	2023	2024
معامل أرسيف	0.0366	0.2692	0.1954	0.3759	0.3068
معامل التأثير العربي	1.60	1.60	1.73	1.25	1.55